



الهيئة المصرية العامة للكتاب



رساء وطي

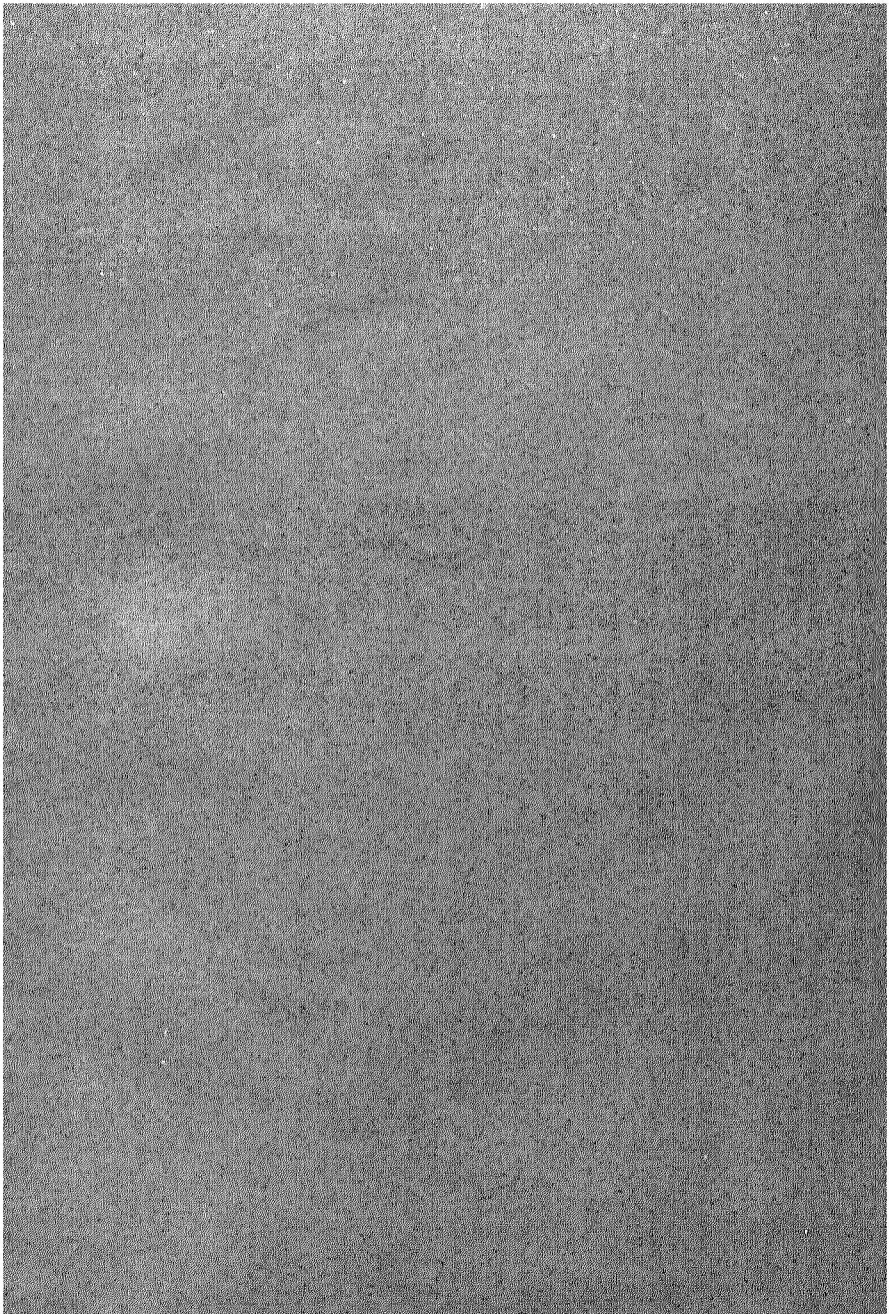
مع ثلاث قصص جديدة



Bibliotheca Alexandrina



0147578



مؤلفات يحيى حقى

يحيى حقي

القصص ٣

وساء وطيب

مع ثلاث قصص جديدة



المركز الوطني للمكتبات والمعلومات

١٩٩٤

مقدمة

لأزال أذكر كيف كانت حارتنا الضائعة وسط القاهرة تستيقظ
فجأة ذات صباح من سباتها وغفلتها على نداء غريب يتردد في أرجائها،
لانسמע إلا مرة كل عام ، ولا نفهم معناه :
عوف الله . . عوف الله . .

« يزعم البعض أنه تحريف لاسم أوفيليا إلهة الماء عند
الإغريق » فنعلم أن النيل قد وقي بوعده وفاض بالخير والبركات
على الوادى السعيد ، وتنبعث فينا نحن صبية المدينة — ولا شأن لنا بالزرع
والرى — هزة فرح لانعرف سببها، ونجرى إلى الجسور نحتفل بهذا

الموج الأحمر الداكن الذى يشع بالحياة والقوة ، يتدفق فى خيلاء
وعنف إلى البحر البعيد .

ويتقدم العمر ، ويزول سحر الأساطير ، وينتفش الإحساس
الفطرى ، فإذا بنا - مع ذلك - كلما وقفنا على الجسور
وتطلعنا إلى الجنوب ، أحسنا بان أرواحا وقوى مبهمة تهب علينا مع مياه
النيل . وكنا نجد تفسيرها إذا مررنا - والليل قد مضى أكثره - على
عمارة تريد أن تقوم ، ووصلت إلى آذاننا تلك المقطوعات الحزينة
العميقة ، تنبعث من بين أكوام الحجارة حيث يضغط الفعلة -
وجلهم من أبناء الصعيد - حول النار يصطلون ، إذا كان الوقت
شتاء ، أو يتنسمون الهواء العليل ، إذا كان صيفاً ، ويرددون أغاني
لهم يتذكرون بها وطنهم وأهلهم وأحبابهم . وهم ساهرون رغم
تعب النهار ، كأنما تؤرقهم الذكرى .

هؤلاء هم الصعايدة : قوم جاءوا من بلاد نائية ، حرها شديد ،
وزرعها قليل ، تغمر مياه النيل أراضيهم - الحياض - كل عام ،
فيبطل العمل ، ويحلو الاجتماع والسمر على جسور النيل . ثم تتخطفهم
الهجرة إلى القاهرة والإسكندرية وغيرهما من مدن مصر ، فيترك
الأب أبناءه وزوجه ، والابن أمه وأباه ، والعاشق حبيبته ، طلباً للقامة
العيش . . حياة مخوفة بالشقاء والترحال والفرق ، تلهب إحساسهم
وتذكى عواطفهم . ومن ثم كان لأهل الصعيد روح خاصة ذات عمق
وجمال وفن أصيل

ومن تبل هؤلاء القوم أنهم في عز كفاحهم للحياة لا ينسون الغناء ،
تتفجر قلوبهم بأغان ساذجة صادقة ، تمثل بلادهم وسحرها وفقرها ،
وأبراج اللحام البرى المنتشرة فيها ، والنخل باسقات . والنيل عند
فيضانه يفصل القرى فتصبح كالجزر العائمة ، وواديه الضيق تحده
تلال تقبض عليه قبضة فكى كلب صيد على الفريسة

تتحلت أغانيهم كيف يلجأون لهذه التلال هرباً من رجال الحكومة ،
فتتعبهم الهجانة السوادنيون . . كما تتحدث عن حماسهم للأخذ بالثأر ،
والدفاع عن العرض ، وشوقهم وحنينهم للأهل والوطن والأحباب ،
وحسرتهم على أيام الحياة تنقضى في تنقل وفراق . وتنشد هذه
المقطوعات بأنغام حزينة كلها أنين يلائم معانيها بساطة وحرارة
ولوعة .

ولا تخلو عربات الدرجة الثالثة في قطار الصعيد من طلبة تتناقلها
الأيدي حتى تستقر في يد خبير ولهان . فيخيل إليك أن الوادى كله
يتغنى معه ، ويتلقف أناشيده ، وأنها تنزل إلى ثراه كالحب وقت البذر ،
فتكتب لها حياة متجددة أبداً لا تفتى . . قد أصبح للصعايدة قطار -
أبو عجل حديد - يعرف باسمهم ويذكر في أغانيهم ، هو القطار الذى
يرح الإسكندرية في منتصف الليل ليلحق راكبه أول قطار يقوم
في الصباح المبكر من القاهرة للصعيد ، وإذا ذكرت الإسكندرية ذكر
معها سيدى مرسى أبو العباس صاحب المقام العالى ، وله في قلوب
الصعايدة إجلال أعما إجلال .

وهناك في قلب الصعيد الثأى عند « البلينا » بلدة صغيرة يصل إليها قاصدها بعد أن يعبر النيل من بر السكة الحديدية ، هي بلدة مزاته ، موطن الراقصة ناعسة . والفن الصعيدى مدين لهذه البلدة وتلك الراقصة . فلا تكاد تخلو مقطوعة من ذكر مزاته وناعسة . فمزاته وناعسة رمز الوطن والأهل والأحباب وأيام الهنا . وها هي بعض ثارات من الأغاني الصعيدية (١) ..

(١)

يا باجور الساعة اتناشر يا مقبل ع الصعيد نارى يابوى
سلم لى ع الحبايب ومحمد ولدى »
يا جريد النخل العالى طاطى ورد السلام »
سلم لى ع الحبايب آيا غايب لك زمان »
تحسبى اليوم نسيتهك دا البعد الى جفاك »
خايف أروح مزاته ناعسة تتقل على »
ضمينى وأنا أضملك ليل الشقا طويل »
شمس العصارى غابت يالى بلادك بعيد »
فرش الحمام على الميه . فرحواله الصيادين »

(٢)

خاين يازماني وديت حبيبي فين
ولا جواب بجاني شيعت له جواين

(١) هذه الأغاني من جمع صديقى الأستاذ محمد عصمت .

سوده وعاجباني عيون حبيبي ياناس
نجم السما العالي يشهد علينا الليل
ولا كان على بالي يوم السفر يابنات
بابو مقام عالي مرسى يابو العباس

(٣)

عديني يا معداوى عديني أنا
مد السقالة يا ريس معرفش العوم ياعم أنا
عديني أنا ومحبوبي والأجره على أنا
محبوبي في البر الثاني عنده مونة سنه
قدام بيت الى بحبه شجره وضله ومعنى وهوا
يا رايح على مزاته حود ع البلينا
تلقى بنات عبد الله ناصبين السلطنه
وعمار يابو حمادى وزمان البلينا
ياللى حبيت ولا طلتش صعبان على أنا
وملدام خالى السوابق على آيه تنلرني ياعمه أنا
ناعسة نزلت في القارب ماتنسم ساعة ياهوا

..

وأخيراً نورد تلك المقطوعة التي خلدها الدين جندتهم « السلطة »
العسكرية الإنجليزية بأنواع من القسروالبحروت في الحرب العالمية الأولى
زاعمة أنهم متطوعون . وكان سيد درويش يقدرها ويقول عنها :

« الطبيعة فوق الفن »، ويغنى منها البيتين المشهورين ويرددهما وهو
ييكى ، يرحمه الله

على يوم ما رغبوني	لم كان لى مرام
وعطسوني الثلثايه	وقالوا لى كتبوك جمال
وانا كل ما قول التوبه	ترمينى المقادير
وعد ومكتوب على	ومسطر ع الحبين
بابهيه نخبرينى	بمالى قتل ياسين
قتلوه السودانيه	من فوق ضهر الهجين
وبهيه فى المساكم	شدت واحد وكيل
احكم بالعدل يا قاضى	قدامك مظالم
عوج الطربوش على شقه	حكم باربع سنين
سنتين فى السجن العالى	سنتين فى الزنازين

. . . .

وكان من حسن حظى أنى عشت فى صدر شبابى سنتين فى
الصعيد ، فأتيح لى أن أطل على بعض أسرار ه . ثم تغربت عن مصر
وكان خليقاً بى أن يشغلنى الحديد عن القديم ، ولكنى وجدت نفسى
أجتر على مهل ذكرياتى عن الصعيد ، كأننى لم أفارقه . وأنت لا ترى
الشيء حق رؤيته لم إلا إذا غاب عن بصرك . فجرت يدى بقصص
شئى أجمع بعضها اليوم فى كتاب واحد ، بعد أن طال على تشتتها
الزمن ، وقصصت أن أبقي نصها - إلا فى القليل النادر - على حاله لىبقى
لها عطرها الأول .

وأحسب أن الذى حرر كفى اليوم لتقديم هذا الكتاب للقراء ،
هو أن وطننا المحبوب الذى كان يؤرقنى ماعاناه من مظالم ، هى التى
أوحى إلى بهذه القصص ، قد أذن الله له سبحانه وتعالى بمنه وكرمه أن
يفكك أغلاله ، ويحكمه أبناؤه ، وتم له العزة والكرامة ، ويتطلع
إلى مستقبل مجيد . .
عوف الله . . عوف الله . . .

البورطجی

الفصل الاول بلاغ ورا بلاغ

١

دخل حسنى أفندى مكتبه : بخطوته سريعة ، جبينه معقد .
وأخذ - أى خطف - البلاغ من يد الغفير ، وانفجرت من بين
شفثيه لعنة ضاع لفظها طى حديثها . يستدعيه الأمور على عجل ،
فيقوم من وسط عشائه مضطرا ، بعد نهار قضاه على ظهر الحمار .
وأخذ الغفير يرقب عيني (حضرة المعاون) تجرى أثر السطر ،
وتلثنى تلاحق تاليه ، فإذا به يرى التقطية تحف ، وزالت عن الخدين
خطوط قليلة ردت التكشيرة ابتسامة تطل.. وقال الغفير فى نفسه وهو
بلع ريقه :

الحكام كده .. ياما اسرع غضبهم .. ياما اسرع رضاهم !
واستراح حسنى فى جلسته ، واستقام ظهره وأمسك البلاغ
بين يديه ، وباعده يتفرج برؤيته ، ثم بدأ يتلوه على نفسه فى تمتمة غير
مسموعة . كلما نطق بكلمتين رد عليها بهزة من رأسه ، تصحبها
تلعية من حاجبيه ، وشاركها رجله اليمنى . فهى — من تحت المكتب —
تقرظ كل تلعية بنقرة .. وخم تعليقاته والبلاغ بضحكة أمالت
رأسه ، تخرج من وسط الحلق ، ثم إلى الأنف ، وقد تعود إلى الحلق
ضحكة فاحشة ، خليعة غجرية .

وكان الغفير قد فهم منذ من أن حضرة المعاون : « عما يتمسخر
على البلاغ . ما هو العمدة مش ولد مدارس » . وما لبكبه ضد العمدة
« بلدياته » مع المعاون الغريب ، رغم شخطه ونطره . « وابتسم هو
أيضا ابتسامة ذليلة كلها تملق :

— دا البلاغ اللى ح تقوم القيامة عشانه ؟ داهية تسم القفا
ياسيلى .

ضحكة أخرى أخف . وأخذ يعيد القراءة بصوت مرتفع :
فما أنه يتلوق السخرية من جديد ، وفيها أنه يتفكه بصحبها كلها على
رأس الغفير الواقف أمامه كاللوح . ويشمله بهكمه لتكون لذته
مزحوجة :

« ساعة تاريخه بمرورى من بحرى ، حسب أوامر سعادة البيك
المأمور . ما أشعر إلا ورأيت سلمان عبد العال ، فما كان منه إلا أنه

أخبرني أنه سمع بالاشاعة أن ناظر بوسطة مكتب الناحية بلدنا ،
عباس أفندي حسين ، اتهم على محروسة بنت الشيخ مبارك حال
كونها رايحة تشتري مترجاز من دكان الشيخ رمضان ، وأن المذكور
أعلاه اتهم على فرحانة بنت المعلم رضوان بعد صلاة المغرب ،
فانسرعت وجرت منه ، لاسيما أنه في الطريق العمومي . وبسؤالهم
لم واحد منهم اشتكا خوفا من القولة وكلام الناس . وللأهمية الجميع
مرسلين للمركز أفندم ...

عمدة كوم النحل

عبد السميع وهدان

حاشيه - عباس حسين أفندي عاصى على أوامر الحكومة وشيخ
الخضر ، ولم رضى ينزل معاه

عمدة كوم النحل

عبد السميع وهدان

لم تكن فصاحة البلاغ - ففيه « لاسيما » - هي وحدها سبب
ضحك حسنى . بل لم يستطع - وهو المعاون القديم في الكار -
أن يتمالك نفسه إزاء مكرالعمد ، يبدو في مثل جديد . ولكنه هذه
المرّة مكر صبياني يحاول أن يخبئه عبد السميع وهدان بين السطور .
ففي أول البلاغ (أوامر سعادة البيك المأمور) وفي آخره
(للأهمية) ... رجل خدام حكومة يخلص نفسه من المسؤولية ،
ليس له يد ولا إصبع ، ولكن أين من يقرأ هذا البلاغ ولا يفهم

أن بين العمدة و (ناظر بوسطة الناحية بلدنا) حزازات ، أو بتعبير
 العمدة نفسه : « حقاظات ، وخصومات » ... ليس في البلاغ
 شكوى من أحد المحبى عليهم .. والمرسلون للمركز ، والوقت ليل ،
 جهود قد يكونون غير متطوعين .. وحسنى ليس في حاجة لهذا البلاغ
 ليفهم ما بين الرجلين من خصومة . فهو يعلم أن ناظر البريد يسكن
 أحد منازل العمدة ، وبسبب ما شب بينها حول هذا المنزل من جدل
 كله عناد .. العمدة يصر على أن يخرج من داره هذا « الأجرى »
 الرجال ، ليس له عشرة تلمه ولا بلد يقره . ماهيته ؟ يدفع مثلها
 حلواناً للصراف ولا يبالى . والموظف المتعاطف ببلدته وطربوشه ،
 وسلطة الوظيفة وراءه ، يتكبر على هذا الفلاح الجاهل ، الخلف
 مكانه وراء الحماموسة لا بين الناس .. يجب أن ينهزم أمام الحكومة .
 ولم يكن حسنى لى بعد كيف جاءه العمدة من قبل شهر يشكو .
 عباس ويطلب إخراجه من المنزل على عجل . ولمح له أنه يستطيع
 بفضل الوسائط أن ينقل خصمه من البلد كلها ، لا أن يخرجها من
 الدار فحسب . فوعده حسنى بكلمتين حلوتين ، أن ينفذ له غرضه ،
 وهو ينوى أن يصلح ما بينها . وانتبه فرصة وجوده في كوم النحل
 بعد يومين ، وعرج في طريقه من المحطة الى البلد على مكتب البريد .
 ولم يكن رأى هذا الشاب العنيد من قبل ، ولم يشأ أن يستدعيه إلى
 دوار العمدة ، حتى لا تكون « الكرامة » سبباً للرفض ... وقف
 حسنى أمام الشباك ، وأمسك بأحد أعمدته ، وأطل من بين عارضتين :
 يا عباس أفندى ؟

فواجهته رأس على كتفين تقبع فوقها كاليافطة كلمة (بوسته)
 خيبت من قماش أصفر بخط قبيح .. ورأى وجهاً مطاولاً يخرج
 منه بوضوح أنف دقيق . فتحناه ضيقتان ، تحتهما شفتان رقيقتان .
 فوق الجبين شعر أسود فاحم ، زاد إهمال صاحبه له من سجال حلقاته
 المشبكة .

ياعباس أفندى ! كنت عاوز أكلمك فى كلمة صغيرة .
 أفندم .

مش من صالحك تخانق العمدة ، أنت راجل منا وعلينا ..
 أنت أخونا وأنا أقدم منك وأفهم الراجل دا ... دا راجل طيب لسه
 عيل . الواحد يضحك عليه بكلمتين بيتى زى العسل . يهب يهب
 وبعدين ينطقى

- دا لسانه زفر ...

لا ... لا .. أنت غلطان

وأستمر الكلام بين الوجهين ، ينقلان كل حين وآخر مكانها
 بين قضبان النافذة . ثم لان الحديث ، واختلطت أعمدة الحديد
 بالابتسامات والضحكات ، ومد عباس يده فصافحة المعاون .. ولما عاد
 إلى المركز ظن أنه قضى على النزاع وأراح نفسه ، بالأخص - من
 تحقيق شكوى العمدة فى المستقبل ...

فإذا هذا الامل يهدمه الغفير الواقف أمامه ..

لا يستطيع هذه المرة أن يصرف المسألة « حياً » أو يضحك على

عقل الاثنين بكلمتين من كلامه الحلو . فهذا بلاغ به رقم وفيه مسئولية ولكنه لا يدري لماذا لا تطاوعه نفسه على السير في تحقيقه ؟؟ فليس من شك أن وراءه ضرراً لهذا الشاب .. ولكن ما الذى يربطه به ؟ وماذا يهمه منه ؟ فى قرارة قلبه ميل خفى .. هل ميعته حلقات الشعر المشتبكة ؟ أم إحساسه بالشفقة نحو هذا الوجه المدفون فى غرفة مظلمة رطبة فى بلد حقير ؟ .. عندما صافحه من بين ثنانيا العوارض الحديدية خيل إليه أنه يحسك بيد سجين . .

و « كلفت » حسنى التحقيق بمهارته وصرف الناس ، ثم قام إلى التليفون وطلب الصراف وكلفه أن يرجى عباس أن يكلمه . وبعد قليل كان فى صوته صداقة غير مفضوحة . وثبات وتأكيد . ويرن فى السماعة على أذنه صوت سريع اللهجة ، يتحدث الكلام . مهتاج اللفظ . ولكنه فهم ، ووعد بما كان حسنى يرجوه فيه .

فى اليوم التالى قبيل الظهر دخل عليه عباس وهجم على مكتبه ، بتكلم وهو وافف .. عضلات وجهه ترنحش ، محتقن اللون . وانفجر لا يتمالك أعصابه ... هو يعلم الشكوى المقدمة ضده .. ماذا فيها ؟ أنه يفعل ما يريد . ولو أراد لفعل أكثر من ذلك . على أن هذا لم يحصل . وماذا فيه لو حصل ؟ إنه يهزأ بأقصى ما يمكن أن يطلب منه كرد شرف .. أمن أجل المنزل كل هذا ؟ ماذا قال هؤلاء البنات ؟ هل سب ؟ لبس بسبب . هل سمعه واحد ، واحد فقط ، لا يكون من أتباع هذا العمدة السيء ، الخبيث ؟ أو يشهد بأنه كلم البنات

كما يدعى - فى الطريق ؟ . المنزل رطب ودون ولا يستحق الإيجاز الذى يدفعه . ان أراد إثباتا يحضر له « الإيصالات » . إنه يقسم بالله ألف مرة أنه لا يعرف هؤلاء البنسات ، حتى أسماءهن . الشمس لا تدخل غرفة النوم ، والفيران كالقطط . وهكذا وهكذا . وهويلوح بيديه يكاد ينكئ على المكتب ، وأصابته حركته الدوارة . فاندلقت على الدفاتر ، ولكنها لم توقف من حدثه ، ولا قطعت تحديقة حسنى فى هذا الشاب المحموم ، تأسره من وجهه عيناه . لم يكن دفق النظر فيها من بين العوارض . فإذا به الآن أمام عينين تضيقان وتتسعان ، لا يستقر إنسانها لحظة . لهما بريق غريب . ماؤهما يغلى . .

أجلسه حسنى ، ولم يفانحه بسؤال . وعند انصرافه أخذه من ذراعه وسار به إلى داره ، وأغلق عليه من « كولونيته » . وتركه فى غرفة استقبال متواضعة ، ولكن كنباتها بأغطيها البيض وجوها الهادىء تريح الأعصاب المتعبة . ولما دخل عليه من جديد ، وجدته يخفى وجهه بين راحتيه ويكي بحرقه ونهبة متتالية . فانسحب دون أن يشعره بنفسه ، لعلمه أن الأزمة لا تنهى إلا بهذا الانفجار .

نما العطف بين قلبيهما ، وأكلا معاً ، وقص عليه حسنى من ذكرياته وتجاربه حكايات تنسى الهموم . فابتدأ عباس يعود للحياة ، وشكا له أنه تعب من صحته فى الأيام الأخيرة . فهو يأرق بالليل ، يشعر فى الصباح أنه يقوم من عمل شاق ، فجسمه مجهود مكسر ، لم يرتو من النوم والراحة ، أقل الأسباب - بل أنفها - يستفزه الآن على خلاف

طبيعته، فينفجر فجأة ويهيب. له حدة تعلو درجة درجة حتى يفقد
سلطانه على نفسه ويصبح كلامه خليطاً من صراخ غير مفهوم ،
ثم يهدأ على دوخة تملأ رأسه وتكاد تصم أذنيه .

أمس جاءت هذه الدوخة في الطريق . لا يدري ماذا فعل ؟
وهنا تلثم وتخفض يبصره وصمت. ثم عاد يؤكد أنه لا يعرف الفتيات
كل البلد تعلم عنه الشرف وبعده التام عن المسائل النسائية .
وأكبر دليل هو أن النسائيات معدومة من نفسها بالمرّة في كوم
النحل ، وهى بلد كالخق .

وانتهى النهار على صفاء . وأكد له حسنى أنه واجد حلاً يقضى
على خطر البلاغ . ولما هم يقوم ، شد الضيف على يديه. فابتسمت
له عيناه ولكن ليس في نظرة حسنى الفاحصة ولا شعوره الحساس ،
ما يطمئنه على أعصاب هذا الشاب ، ولا على ما تخبئه له الأيام .

لم يطل صمت عبد السميع وهذان . فبعد أسبوع واحد كان
عباس من جديد موضوع بلاغ آخر . وفي هذه المرة ترك العمدة مكره
وأناقته في الأسلوب ، وعدل عن اللف والدوران ، وكتب بلاغاً
قصيراً صريحاً ، ليس في آخره تحريض. في بعض الأحيان يكون أسلوب
العمد هو أصدق وسيلة للتعبير عن بعض جرائم الريف ، وتكون
سداجة الكلام هى الإطار الوحيد الذى يتناسب وما للجرائم الفلاحين
من صور بدائية . والحادثة الجديدة ، وإن لم تكن من ضمنها ، إلا أن

بساطة الأسلوب ظلت قالباً ملائماً هذه المرة ، لالتوافقه بل لتناقضه .
فقد تضمن البلاغ الساذج حادثة مشتبكة لا يمكن فصل عناصرها .
هى مزيج من التعقيد والبساطة ، من المحتمل والمستحيل ، من التعقل
والجنون . ولم يكن غير هذا الأسلوب — الذى يظن أنه آخر ما يصلح
لوصف هذه الحادثة الشاذة — يستطيع أن يلم على الورق — بالبساطة ،
رأساً من غير تطويل أو فلسفة فارغة — ما للحادثة من شتات مائل
الوضع ، متنافر الأجزاء ، مثير للدهشة والعجب ، ومن صميم كله
حزن وفجيرة

عباس عائذ فى الصباح المبكر إلى المحطة ، راكباً ركوبته فوق
الحسر ، أمامه حقييته الصفراء مملوءة بالخطابات . يشير دهشة أفواج
الفلاحين الذين يمر عليهم ، لأنه لا يرد سلام من يحببه منهم .. له
ظل واضح الأطراف متعلق بأرجل الحمار ، وسطه ملئ على الحسر
المائل ، وآخره يتسحب تحته على بعد — كالمراقب الحذر — فوق
الغيظ المحاور . فى الجو نسيم مشبع ببرودة يستلذها الوجه ، وفى السماء
قطع من سحب ، عذارى ، رقيقة الحاشية ، زاهية اللون ممشطة
مترفة ، تسير الهويىنا — متداخلة متفارقة — للتنزه والتمطى فى الشمس ،
فهى شفافة مبهتمة ، ليست سودا ولادكنا ، كأخوتها الحبلبات بالمطر
وفجأة رأوه يفتح الحقيبة ويتناول منها بعض الخطابات ويمزقها أرباعاً
ثم يرميها بذراع مفرودة فتطير فى الهواء كالريش ، ثم
يعود من جديد ، والفلاحون يحملقون فيه لا يدركون علته . بدأ

بعضهم يضحك .. وجرى آخرون وراء قصاصات الورق ، ثم
انتهوا وتجمعوا عليه . لا يكاد يقوى على البقاء فوق ظهر الحمار ،
فهو محني يهتز - ورقبته ليست منه - إلى الأمام والخلف . عيناه
مريضتان قد انطفاً بريقهما .. وجهه أصفر ، وحالته كرب .

الناظر عيان ...

دا مسوراً ...

رشوا عليه ميه ...

وأحاطوه بالأذرع . وسندوه بالأكف ، حتى أبلغوه منزله ،
وحملوه إلى فراشه .

٣

لم يكن في تقدير حسنى أن يتحقق ظنه بهذه السرعة ولا على
هذا الشكل ، فهو لم يتم قراءة البلاغ الحديد حتى ترحم على مستقبل
هذا الشاب . وارتسمت أمامه صورة عباس أمام وكيل النيابة يلاحقه
بالأسئلة ويفتش ثيابه . عله يعثر على نقود سيدعيها - في أغلب الأمر
كذباً - بعض أصحاب الخطابات . فالفلاح يعرف كيف ينتز
الفرصة . ثم يتلوه مندوب مصلحة البريد بأنواع من الأسئلة الأخرى .
كل هذا وهو مريض ، وحيد ، في منزل مقبض ، في بلد يرأسها عدو
يشعر - وهو على بعد - بشماتته .

قصد حسنى أن يصل لكوم النحل قبل الجميع . يود لو يستطيع
أن يقطع من الزمن بضع دقائق ينخصصها لمقابلة وحديث بينه وبين

عباس ، حتى لا يتداخل أو يقاطعه فيها أحد . ولكنه في القطار هبطت حماسه وسرح ذهنه في أفكار عديدة، تبدو أن لا رابطة بينها وبين البلاغ . ومع ذلك كانت حادثة عباس المحزنة هي اليد الخفية التي تحرك أفكاره . لا يتجمل بها إلا على كل فرع أجرد ، أو ماء آسن . وصل إلى المنزل وهو متعب ، ليس على لسانه كلمة من كلمات التشجيع التي جمالت في ذهنه من قبل . فهم من الغفير الواقف على الباب أن عباس لا يزال في فراشه ، وأن العمدة أجهد نفسه في جمع قصاصات الورق ، فبلغ عدد الخطابات الممزقة حوالى الأربعين .

وجد حسنى صديقه راقداً في سرير صغير ، في غرفة مملوءة بالتراب وأسراب اللباب . أمامه منضدة صباح مخربشة كالحلة ذات ثلاث أرجل ، وكرسی واحد . أخذه حسنى وجلس بجانب النافذة .

ولما رآه عباس حاول القيام . ودلى رجلين نحيفتين يبحث عن قباقبه . العيون التي كانت تلتهب رماد قديم .. حركاته بطيئة مجهدة . أين عباس الثائر وحدته ، من هذا الجسد النحيل المحطم ؟ وجهه في صفرة الليمون ، ولكنه هادئ ، بل حاول الابتسام فبدت على شفثيه ابتسامة ذابلة ، ما أجدت إلا أنها أكدت مرضه .

— أحسن ؟

— أحسن كثير .. والحمد لله .. نمت شوية .. كنت سخن .

— ورينى ..

مد له عباس يده ، فأمال كرسيه وتناولها بكفه لحظة واحدة ،
ثم تركها .
— لا .. حرارتك عادية . مافيش حاجة .

لمسة اليد هي التي فتحت الطريق . عاد عباس إلى السرير ، وأسند
ظهره على الجدار ، ورفع ركبتيه حذاء صدره وغطاهما ببطانيته .
ثم بدأ يتكلم على مهل ، كأنه يتلذذ بالحديث .. مرة من أول الموضوع ،
ومرة من وسطه ، وربما جاء بالنتيجة قبل السبب . يطيل على هواه
ويقتضب . أغلب الأمر أنه كان غير واضح ولا منطقي في سرد ما
يقوله .. ولو كان أمام غريب لقاطعه بألف سؤال واستيضاح .
ولكن حسنى لم يفتح فمه . ذراعه على حافة تعمد رأسه أحياناً .
عيناه صادقتان مواسيتان تشربان من الحديث . لا لبس في نظرتها ..
هو فاهم . وشاعر بكل ما في قلب محدثه . رغم الغموض والاضطراب
وضياع المنطق والسلسل . ولم تفتحه نغمة واحدة ، مهما كانت خافتة ،
من لحن صديقه .

الفصل الثانى .

عباس . . أصله وفصله

١

نشأ عباس من أسرة كل أفرادها موظفون صغار لم يرحوا القاهرة . كلهم يؤكدون أنهم من سلالة عربية (تشهد عيونهم السود ووجهه الضيق الطويل) ، وبعضهم يضيف أنهم من السادات رغم أن سلسلة النسب الغريب التى يحفظونها تنهى عند جدهم الثالث كل ما يعرفونه عنه أنه هبط مصر من طرابلس ، واستقر بالفحامين فى تجارة صغيرة قوامها الشاى والبلغ . وعند وفاته أقفل الدكان ، وتفرق أولاده من المدارس على وظائف الحكومة . معظمهم مات بعده بقليل ، وهم فى مطلع الرجولة . فقطعوا بذلك ماضى الأسرة عن جيلها الحاضر .

ظل عباس لا يرى في هذه التفاصيل سوى حكاية يسميها ويرويها ولا تؤثر على حياته . إلى أن انتصفت دراسته الثانوية . فاستيقظت فيه عاطفة من الغيرة كلما رأى - إذا اقتربت الإجازة السنوية - طلبة المديرية الواحدة يجتمعون ويتناقشون في موعد السفر ، والتذاكر المخفضة للجماعات . وجرح قلبه . هل أسرته نبات شيطاني عاثم على وجه الماء ؟ في نفسه ضعف لشعورها ، بأنه ينقصها - على خلاف من حولها - جذور قوية تربطها بمكان معين . إجازته كدراسته تمضي في منزل لا يستقر في حى واحد ، يصغر ويكبر . ويطول ويقصر . وأخذ يصبر نفسه . يتلوق دونهم لمدة لا يعرفونها . فهو قد فهم من محادثته معظم هؤلاء الزملاء أنهم ما يكادون يصلون لبلادهم حتى يخلعوا بلدهم ولا يرونها إلا إذا حان موعد الرجوع . أما هو فبعد عن هذا الانقلاب وهذه الحياة ذات الوجهين . فبذلته موجودة كل يوم تنتظره بعد العصر ليخرج يتجول بها في شوارع القاهرة . له ثلة من الأصدقاء سريعة تنقل الأهواء . مرة في قهاوى المالية تلعب الطاولة . ومرة في قهاوى أبى الريش تلعب الشطرنج ، وأحياناً في قهاوى سيدنا الحسين يتعشون بالكباب (اسم الطعمية في هذا الحى) . ثم إذا جاءهم فرج أول الشهر يتبخثرون بضعة أيام في شارع عماد الدين . هم فقراء لا يحتكم أحدهم على ريال صحيح ، ومع ذلك يشعرون كأن قهاوى القاهرة وشوارعها وفسحها ملك لهم .

استمر في دراسته إلى أن اقترب من البكالوريا ، فإذا بنوع من سوء الحظ أحاط بأسرته . لا يستطيع أن يضع إصبعه على حادثة معينة ويقول : هي السبب . فالأسر مخلوقات تهبط أحيانا تحت تأثير مرض خفى غير معروف يمنعها عن السر . أبوه - بدون مناسبة - أرتبك في عمله ، وأحالوه قبل مواعده على المعاش . وأخته غضبت وعادت للمترل . لا هذه ولا تلك أثرت في حالتهم المالية تأثيراً جسيماً . ولكنها فتنت - بغير سبب واضح - من قوة تضامن الأسرة فتبعثرت وخرج عباس - مختاراً - من المدارس يبحث عن عمل ، فوجده في مصلحة البريد . ولبت في القاهرة زمناً يتمتع بمرتبه يصرفه وهو نشوان في تحقيق رغبات الصبا المتكثمة . كلما أذاقته شبعاً خلقت بدله جوعاً جديداً لأنواع مختلفة من اللذات . كالسلسلة المستديرة تأخذ الحلقة بعنق الأخرى .. ولكن دوام الحال من المحال . وجاء اليوم الذى صدر فيه أمر نقله : (ناظر مكتب كوم النحل) ...

من ساعة ما حطيت رجلى في البلد ما طقتهاش ، حسيت إني محبوس .. فين مصر وشوارعها ، وناسها ، وفين الليل مليون نور ، ونسوان رايحه وجاية ، وحركة .. لكن هنا : أهو الشباك قدامك .. بص .. تلاقى إيه ؟ شويه طين مكوم ، وناس وسخين مقملين ، وتو ما يلدن المغرب كل واحد يتلم في بيته .. والعنمة ؟ ياباى من العنمة ياباى طول الليل حمير تنهى وكلاب تعوى .. أول امبارح جماموسة الجيران ماتت .. قبل ما يلحقوها بالسكين فضلوها يصوتوا عليها ، وهات بالطم .. جنازة حق بحقيق . ما نمشش للفجر .. »

لم يكن حسنى أقل ضيقاً بالصعيد من محدثه . كل شفاعاته
أن ينتقل إلى بحرى . أطل من الشباك على بيوت واطئة مترابطة .
الفقير منها بالخالوص (١) والغنى مبرقش بفتات التبن فى طوبه التى .
كلها أفرام متراحمة متلاصقة كأنها قبيلة متوشحة ، على رؤوسها
شعر الحمج ، فى تلؤلؤ هشة من حطب القطن وبوص الليرة ، ووصلت
إلى أذنه صرخات متعالية ، بعضها للإنسان وبعضها للحيوان ،
لا فرق بينها .. حدة الصارخ فيها واحدة . وعناد المتهر سواء ..

على أن عينه لحت . من فوق أكوام الوقود خضرة ممتدة .. لا يرى
فيها شيئاً بوضوح . هو حقل فول لم تظهر قروونه بعد . أزهاره فى
مقتبل عمرها ، بعضها أبيض ، وبعضها ضارب للحمرة .. كلها تهتز
فى حركة خفيفة . لا يستطيع أن يحس بها من رؤية القرون مهما كثرت
بل لا بد أن ترتجى نظرتة وتشمل الحقل على امتداده . الحركة تجول
فيه ، مختلفة النمط هنا عما هناك . ولكنها رغم هذا الاختلاف شخصية
واحدة لها سحر . العيدان كلها — فى هزة المرتلين — تشترك فى
أنشودة خافتة معسولة .

فى بعض الأحيان يمر بركوبته وسط هذه الحقول وتشمله بعطرها
فينسى كل همومه ، وثقاله الصعيد ، ويسرح ذهنه ، ويشعر أن
ما بينه وبين الله قد عمير من جديد . هو أسير الصعيد ، ولكنه مدعن ،
موطد نفسه على الرضا بما فيه . أما عباس فزهرة لا تنزع من أرضها

(١) قطعة من الطين الجاف تستعمل فى بناء بيوت اللاحن .

إلا بتلف جذورها ، فهي لا تنشيت بعد ذلك في منبت جديد .
لا يقوى على البعاد عن القاهرة : أمه وعشيقته . هو كالحلقة تستمد
حياتها من زحام الخلية ، وإن كتم أنفاسها . فإن وجدت في وحدة ماتت
ولو كانت في أطيب مرتع وأرفه حياة .. وعميت عيناه عن ثروة الصعيد
في سمائه وحقله ، وسمرت على أكوام الخطب .

٢

« والأدهى من كده أن دى أول مرة ألبس فيها بدلة البوسطة الملعونة
دى . عامل أفندى بالكذب . لا طلعت عنب الشام ولا عنب اليمن .
عمر الفلاحين ما بصوالى وأنا فى البدلة الصفراء دى ، زى ما بيصوا
باحترام لمعاون دودة حقير ، ولا كاتب صحة أصله مزين علشان
لا بسين بدل . كلهم يعرفونى . لكن ماشفتش واحد ، بلاش أنكت
وياه ، أتكلم معاه . العمدة راجل جلف زى ما أنت عارف . حتى
الصراف هنا من طرز زمان ، عجوز وبعمه . أقرب أفندى لى
ناظر المحطة ، ودا عشان أوصله لازم أركب الحمار تانى وسط العفرة
٣ كيلو . بقيت أخرج من المكتب للبيت ومن البيت للمكتب . كنت ح أجن
أبى معنور ولا لا ، إذا كنت اتعلمت الشرب ؟ كل ما اتزل البنتر
أجيب إزازة أو إزازتين كونيالك . كل مصروف إيلدى رايح على
الخمرة . وأخترتها اتهدلت بقايا القيافة بتاعت زمان طارت ، وبقيت
أسيب دفتى بالجمع ، واتعودت أروح بالجلابية والجاكته للمكتب .
ما ألبس البنطلون والياقة إلا لما بجى مفتش . ليه خوة الدماغ ، واقلع
والبس فى البدلة وانت وسط الناس دول !

وابتسم عباس بحسرة وتندم ، ثم صمت . له كل حين وآخر
ضربة خفيفة على ركبتيه . كأنه يروض نفسه العاصية على البوح بما في
صدره :

« كان الكلام ده قبل الوقفة بيومين . وأنا واقف في المكتب جالى
الصراف ووراني قصقوصة قماش صغيرة في ايده زفير ولا بوبلين
حاجة زى دى . وقال لى :

— يا عباس أفندى . حاجة لقطه ، والبياع قومسيونجى صاحبي
نحب أجيب لك كام متر من دا ؟ يعجبك ؟
— عشان إيه ؟

— ليه ؟ مش ح تفصل لك جلالية على العيد ؟

مش فاكر قلت له إيه ، فاكر إني رحت أودة تانية . حاجة
ميراني . أضحك ؟ دى أول مرة أسمع فيها إني أبقي زى ولاد البلد ،
وأفصل بدل البدلة جلاليه . تصور ؟ كل فرحة العيد قال تفصيل جلالية !!
حاجة تضحك ولا تبكي ؟ الدمعة طفرت من عيني مرة واحدة . وهات
باعياط . . عمرها ما حصلت لى . ما كنتش أتصور أن كلمة سخيفة زى
دى ، تخلينى أعيط زى العيال العياط دا كله .

٣

كم تحسر عباس في هذا الوقت على أن الحظ الذي رماه في كوم النحل
لم يجزه بإساءته عملاً مسلياً يعينه على تحمل الوحدة التي تكاد تقصف
عمره ، وتطير برج عقله . كان يحسد ناظر المحطة وعامل « البلوك » ،

بل وخفير « المزلقان » ، لأن لهم في القطارات وحركة المسافرين ونظف الوجوه ، ما ينقذهم من وهدة الضجر والسأم . أما هو فعمله إلى رتيب ، في غرفة ضيقة لامفر له منها . في أول الأمر كان له في الخطابات جلة تأخذ عليه جزءا من تفكيره . وربما تفكه بما على الظروف من أغلاط الإملاء ومبتكرات الفلاحين . (من مصر المحروسة لكوم النحل قبلى) ، (إلى كوم النحل المحطة ومنها إلى كوم النحل البلد) كلها . (خير وسلام) ، و « بدوح » بأرقامها ، ومن « يد ليد » إلخ إلخ . ولكن بعد قليل حرمه التكرار حتى هذه المتعة الضئيلة . وأصبح يحفظ عن ظهر قلب أسماء من ترد لهم جوابات وجهة ورودها . بل أصبح يستدل على صاحب الخطاب ، لامن قراءة عنوانه ، بل من شكل الظرف أو خطه أو لزامته ، وكره عباس أيامه ، وبدا له عمله في صورة سلسلة من الخطابات موكلة به ، كالصبيبة حول معنوه تشاغله ، لا يصفع الواحد منها بختمه ، حتى يجيء له من جديد ، هو هو بذاته لا يتغير ، يخنقه في كيس أصفر ، ويقذف ببحثه في القطار ، فيجده - بعد أيام - على المنضدة يصبح عليه .

وهبطت على عباس رحمة من الكونياك فغتمت له ذهنه ، وأرخت أعصابه ، وعلمته كيف ينسى عمله وأطواره نسياناً يكاد يكون تاماً . يؤدي وظيفته كالمنوم المسوق ، وزاد إهماله ، وعلا التراب كل المتاع .

على أنه وإن تخلص من ملل العمل لم يستطع أن يهرب من وحدة

المعيشة . هي التي وسوست له من جديد . وأعادت له التفاته إلى
وظيفته ، ولكنه هذه المرة التفات خطر . فقد بدأ يأخذ الخطاب بيده -
كانه يزنه - ويطيل إليه النظر . ثم يضحك . ما هذا العالم المتشابهك ؟
حتى إلى أصغر القرى تصل هذه السلوك من الورق ، تربط الناس
بعضهم ببعض مالا يربطه الحديد . ليس يفهم ما بين الناس من تماسك
إلا من يدخل مكاتب البريد . هذه الجماهير التي ترى حرة في الشوارع .
في أثرها رسائل تلاحقها وتأخذ بتلاييبها ، تصدمها وربما عرقلتها وكفأتها
أو غيرت مجرى حياتها إلى مالا تظنه ولا يخطر لها على بال . قد تكون
استجداء أو تهديد ، شكوى أو تحكما ، بعضها قسوة وبعضها استرحام
قد تكون محبة أو عداء . مكتوبة بالعطر أو بالدم . قد تكون كلها أرقاما
تمثل خراب بيوت ، وقد تظفر وحدها دون غيرها بدليل على خيانة
زوجة طاهرة ، أو اعتراف بجريمة . وقد تكون بعد ذلك تافهة ،
غثة ، تمثل ما في الحياة من رغاء كهدير الإبل ، ولكنها - رغم ذلك -
لها قيمتها لأنها مغلقة ، مجهولة ، مطوية ، فلا يختلف جواب عن جواب
كلاهما سر محجب لو لان الصمغ لا نكشف عن أمر عجيب .
وحتى لو لم يظفر المقتحم بشيء فإنه سيقع على أمثلة من طبائع الناس
وأهوائهم : سيشجيه أن يرى كيف يضع الله في كل قلب ما يشغله ؟
لا يتشابه قلب وقلب : كلها مسارة روحها مصونة ، لا يفسدها الجهر ،
فالطبيعة فيها على حالها : لا موارد ولا خداع . وربما لا تحوى الحياة
متعة تقارب لذة تتبع رسائل عقل حساس - أنا كان عصره أو طبقته .

وأخذت يد عباس تأكله. ورغم اجتهداه لم يستطيع أن يفهم البلد وعقليته. وشهوات أهله ومناحي أفكارهم. فهل يكون عمله هو المنحة التي وهبها له الحظ ليوقفه من كوم النحل على أدق دخالها؟ وأخيراً - لسوء حظه - طرأ عليه وهم هو وحده الذي رجح الحجة المريضة. وقذف به إلى الحرية. هذا البلد الكريه سلبه شبابه، يكاد يكون مقبرته. وهؤلاء الناس المنتنون، المصفرو الوجوه، المرضى العيون، يضمرون له - لأنه غريب - ازورارا وانقباضاً، كلهم يضحكون في وجهه [يخبت وتباله، وهو يفضلهم بتربيته وعقليته. ففي العمل الذي سيقدم عليه خير انتقام منهم. سيطوهم جميعاً علمه، وتضمهم قبضة يده، وسيقف أمامهم صامتاً ولكنه يهزأ منهم في قرارة نفسه. وسيكون هو الفائز لا محالة. سيحتاط للأمر، ويربط لسانه، ويكتم السر فلا يدرى به أحد. فليس من خطر. وكان مقدراً عليه في يوم، بعد انتهاء عمله، أن يختار جواباً غير محبوبك الظرف، ويفتحه على مهل..

«... إيدي كانت بترعش. خايف وبرضه مقاوح. لكن رغم دا ما شبعنش من جواب واحد. بعد ما قفلته فتحت جواب تاني. جوابات فلاحين حسابات وسلام وسؤال عن الأقارب. ومع ذلك كنت مبسوط. حاجة انزاحت من على قلبي. لغاية دلوقتي مانيش عارف ازاي قدرت أعمل كده.. مش دي طبيعتي. لكن حاجة وزنتي.. والشيطان لعب بعقلي»

اعتراف ساذج لمس قلب حسنى فابتسم . . وقلبه حزين .
 ليس عباس أول شاب يعرفه يأتي من القاهرة ليرتكب أول جرمه في
 الصعيد . كثيرون غيره جاءوا أصحاب النفوس ، على وجوههم جمال
 الرضا والاتزان ، في حركاتهم وملابسهم تألق ، فأصبحوا بعد زمن
 غلاظ الوجوه ، سمان البطون ، ثقيلة حركاتهم ، نظرهم حيوانية ،
 وكلامهم بداءة متكررة ، وفكاهتهم منحطة . أفكارهم سخيفة محصورة ،
 ضيقة . حين يعودون لمدنهم ينكرهم أصدقاؤهم ، وتختلف أذواقهم
 حتى كأنهم شعبان مختلفان .

الصعيد هو المسئول عن تلفهم . . فهم طيبو القلوب ، ولكنهم
 من ضيق التربية بحيث لا يستطيعون السمو عن المحيط المنافر لهم ، أو
 إخضاع ظروفه لمنفعتهم ، واستخلاص ما فيه من خير ، والإعراض
 عن شره . فهم لا ينقمون من جو الصعيد المقبض ووحده القاتلة إلا
 في أنفسهم . يسهلون لها المترلق ، ويردون في عناد وتكبر إلى الهاوية .
 يبدأ أحدهم بكأس مع أصدقائه ، وينتهي بسكير مدمن . الخمر أهم
 خزين بيته . . ويلعب آخر للتسلل ، فيصبح مقامرأ يسهر للصبح ،
 ويوقف حياته على تشم أخبار « البريتات » . ثم من وراء ذلك من
 ينساق إلى اختلاس هين ، أو سرقة تعد بالقروش . منهم من ينجو ومنهم
 من ينتهى إلى السجن . .

ليست سقطة عباس إلا مثلاً آخر على ضحايا الصعيد . لا ينفرد
 وحده بهذا الجرم . فكم في الأرياف من مكاتب يريد يفتح

موظفوها الجوابات ، لا يكتشف منهم إلا اللصوص الذين يتصيدون أوراق البنكنوت ، وتبقى جرائم الباقى مستورة ؟ بعضها تجسس على عدو معروف . وبعضها نتيجة عقلية موظف يعيش فى وهم دائم من الدسائس والوشايات والاثهومات ، فيحتاط لنفسه ويقرأ خطابات من يتوقع منهم الشر . . .

هذه الأصناف كلها يحقرها حسنى وينفيها عن دائرة الإنسانية التى يتعلق بها . فهل عباس من هؤلاء ؟ جريمته واحدة . وقد يقول متشكك إنها أثر مما فى طيات نفسه من قبح مكتوم ، ولكن حسنى يثق بإلهام ووجدان فى طهارة صديقه . إن جريمته ليست إلا اختاما فجيعا لاصطدام عباس ، ريب قهاوى القاهرة وشوارعها ، بالصعيد وطينته وفلاحيه . طبيعته قبل أن تفسد تكسرت ، فهو أحسن حظاً من بقية الضحايا الذين يموتون على مهل عفناً .

٤

« كنت فى الأول أفتح الجواب إلى يحمى تحت ايدى بالصدفة ، كله عندى زى بعضه ، تسليه والسلام ، لقيتها كلها سخيعة ، بقيت بعد كده أنتى جوابات ناس أعرفهم . من دول مرة عجوزة تيجى كل يوم الصبح تسأل بنفسها على جواباتها . . . »

كل الناس يواجهون الشباك ، أما هى فجاءت ووقفت بجانب ، منكمشة ، الحياء يقطر منها . سألتها عن حاجتها فلم تغير موقفها

وكلمته . صوت مدلل ناعم ، ولهجة خليعة بلا سبب ، كأنها تعرفه بل كأن بينهما علاقة ، وليست هذه أول مرة يراها فيها . . .

ما ليش جوابات النهارده ؟ مالك مصهن على .. ياخوى ..
دا الغشم ما كنش كده .

أم أحمد تتعصب بمندبل « بقوية مففل » وتغطى وجهها بطرف طرحها قلما تزيج ، حتى يظل لها بفضل رقة صوتها جمال الظن والحدس على أنها إذا تكلمت تضعف من جديد أمام اعتقادها في نفسها وفي حرما الذى لا يزول ، فهي تزيج لمحدثها طرف طرحها لحظة واحدة . ثم تعود لصوابها وتغطى وجهها ثانية في حركة سريعة ، كلها جبن وتردد ، يتمثل فيها نزاع حاد لا ينتهى بين قوى متكافئة : غرورها وحصافتها .

ناولها خطابها ، فمدت له يداً ، من حافة أظافرها إلى الرسغ فروع من الوشم مغضنة ناشفة ، لم تفلح الحناء في تغطية زرقها .

— « من إيد ما أعدمهاش أبدا . . يمتعك بشبابك ، تنهى » .
أخلت تجيئه كل صباح فلا يخيب أملها ، جوابها مثلها في المواظبة . لم يتأخر في يوم . . الظرف الواحد ، وختم البريد لا يتغير (مصر) والخط على الظرف مهذب ، والكلام مختصر ، يكاد ينفرد عن بقية الخطابات بهذه الميزة .

« كل ده خلانى أهم بالولية دى . . غايته ح تكون إيه ؟
الجوابات دى من قريب لها ؟ مش معقول . . لما جت البوسطة

وشفت جوابها ، حاجة خلتنى مش قادر أسببه من إيدى .. بصنعة لطافة بشويش على السبرتوشوية شوية لما فتحته .. فكرك لقيت إيه ؟ جواب حب من الدرجة الأولى . . فيه بوس وأحضان وشكوى وكلام فارغ زى ده . . ضحكت لما انفلقت . أول الجواب (حبيبتى ونور عيني) . . مش مصيبة ان الولية دى تبقى لسه لدلوقتى نور عين ؟ لكن بقيت مش مصدق ، مش داخله راسى . لازم المسألة فيها سر ثانى . إزاي أوصل له ؟ سهل خالص . بصيت للإمضاء لقيتها خليل . . جه فى بالى طوالى ظرف دايمًا ألاقيه فى الصادر العنوان إالى عليه :

« حضرة المحترم الفاضل خليل إبراهيم أفندى

يحفظ بشباك بوسته الفجالة مصر »

لازم هوا . . ح يكون فى مصر كام خليل لهم جوابات من كوم النحل ما فيش غيره فى الغالب . . تانى يوم فتشت الصادر ع الجواب اللى فى بالى لقيته . . الظرف مكتوب بالكويا . خط منتظم لكن حروفه واطية . حاجة نسوانى كده . . زى ما عملت فى الأول عملت فى الثانى . فتحته . لقيت رد جواب أم أحمد كله حب هو واخر لكن الإمضاء لأم أحمد ولا أم دياولو . . كلمة واحدة معقولة : جميلة عرفت إني أنا مش وحدى فى البلد . . أم أحمد عامله بوسطجى معاى . تانى يوم لما جت لى ضحكت عليها وقلت لها : — لك جواب مسوكر . . من فضلك أكتبى اسمك هنا .

— يابني ما تضحكش على . . دانت غالى عندى قوى وحياة
شرفك ختمى نسيته فى البيت .
فتأكدت . . ولما قلت لها دى كانت غلطة منى ابنسمت قوى
افتكرت إني هزرت وياها مخصوص .
تتبع مراسلات جميلة وخلييل . . هى اللى تستنى الجوابات
الثانية . مابقاش أفتح منها ولا جواب .

٥

فى مبدأ الأمر بدأ يشك أنها جوابات حب عادية كثيرة الوقوع
بين فنى بختنى وراء شباك البريد وفتاة وراء عجوز ، وأن عباراتها
متكررة وفى أغلب الأحيان متشابهة . ولو كان شعور عباس مقصوراً
على ماتراه عيناه ، لأمله ما بها من خلط بين الحب وأحاديث أخرى سخيفة .
فليس شيء أقرب لأصحاب الطبيعة النارية من المنزل ، لديهم كل ثورة
متعالية قصيرة العمر ، يعقبها هدوء كأنه الموت . ولكنه فوق ذلك —
ذو قلب حساس . اهتز كالعصا اللى تكتشف المناجم المخبأة . فوق
كنوزها المدفونة بين السطور ، شيء نخبى فى هذه الخطابات تعلق
بقائه ، فأصبح لا يستطيع الخلاص منها . .

بعد مدة بدأ بينه وبين الفنى نفور . . فهو يكتب بالخبر ،
خطه جميل ، ولكن أثر التصنع والجهود فيه ظاهر . شعر عباس أنه
أمام شخص (يحسن خطه) أكثر مما يعبر عن شيء . يبدأ كل مرة

من طرف الورقة المثني ، ومضغ التاريخ دائماً في أول الصفحة من اليمين ، ودائماً بالخط النسخ يحيط إمضاءه بخط يخرج من حرف اللام ويرسم فوقه دائرة صغيرة تبدأ منها دائرة أخرى كبيرة تشمل الكلمة كلها . في كل جواب منه فراغ أبيض قصرت عنه أفكاره أكثر أحاديثه عن حركات مادية . من أوائل الخطابات التي فتحها عباس ، خطاب يحكي لها فسحة في القناطر الخيرية مع بعض أصحابه بدأه باللغة العامية ، فلما جاء للحدائق وصفها لها بلغة فصحي فيها كثير من السجع . كل هذه المظاهر جعلت عباس يعتقد أن خليل شخصية ضحضاحة قوامها الغرور . . وظن في مبدأ الأمر أنه لابد أن يكون تلميذا .

ضاعت قيمة جوابات خليل في نظره ، ولم يبق له إلا جوابات جميلة . لم يكن تقديره لها من أثر المقارنة بين الاثنين . فأصحاب الطبيعة الصافية ولو أنها مشتعلة كعباس ، لديهم استعداد موهوب يفتح أعينهم للإحساس الصادق . . وكانت كل مظاهر جواباتها تدل على أن حب جميلة مخلص غير كاذب ، يشغل حياتها ويأخذ عليها كل تمكيرها .. وقد ساعدتها الظروف على أن تكون كتابتها أرقى . فليس في القرى للفتاة حياة مادية تستطيع أن تتحدث عنها . هي في أغلب الأمر حبيسة دارها . فاقصرت جميلة على وصف شعورها وأفكارها تنقص له - من جديد - ذكريات قديمة بينها . وليس من جواب إلا تضمنه أملاها في المستقبل أو ثقها بعدالة الله . لم تحاول

مرة أن تكتب باللغة الفصحى، مع أن الدلائل تدل على أنها تعرفها .. كتابتها تنتهي دائماً - وكأنها مرغمة - في آخر الورقة . خطاباتها كالظروف مكتوبة بقلم كويبا . مرة تبدأ من الطرف المثني ، ومرة من الطرف المفرد . جواباتها على الورق المسطر بالمستطيلات ، وفي بعض الأحيان تكتب على ورقة كراسة . كثيراً ما تهمل التاريخ وكثيراً ما يكون في خطها حروف أكثر ظهوراً من غيرها بتبيل الورق ، دلالة على أنها تسهو في بعض الأحيان وتضع القلم في فمها تبدأ الجواب بحروف مقاربة، وتنتهي به وقد اتسعت . لاحظ عباس أن هذه الظاهرة تتكرر في الخطاب الواحد ، فاستنج أنها تكتب الجواب في بعض الأحيان على جلسات متعددة ، ومع ذلك لا يستطيع من يقرأه أن يلحظ أى انقطاع في روحه . الكلمة التي قامت عنها ، هي في ذهنها عندما تعود .

٦

لم يكن عباس جاسوساً دنيئاً يستمد كل لذاته من اطلاعه - مجرد اطلاعه - على أسرار يظنها صاحبها في مأمن ، سواء أكانت أسراراً ذات خطر أم نافهة . بعض النسوة يقفن بالساعات وراء الستائر يراقبن جيرانهن يؤدين خدمة المنزل . فهو أوكأن كذلك لارتد شعوره . ساعة فتح الجواب وانحصر في نفسه لايهمه - بل وربما لا يفهم - ما يقع عليه بصره . يغمره نجاحه في معرفته للسر بالغبطة المريضة ، على وجهه ضحكة صفراء نكراء ، خبيثة ، ممروزة ، هي أكثر ما تكون هلال الشيطان الذي يتلبسه .

أما هو فبعيد عن هذا . قلبا يفكر ساعتها في نفسه ، إذ يشعر أنه انتصر . ليس على وجهه أثر للغبطة ، بل بالعكس ، شيء في هذه الخطابات يهصر قلبه ويميت شفثيه . أهو من لدمه على جرمه ؟ أم لأنه استفاق لأول مرة في حياته على ضجة الدنيا ، نختق طيها نغمات قد تكون خافتة ، ولكنها أصيلة ! هل كان يظن أن أسطح القش وجدران الطين في كوم النحل تحق قلباً متوقداً ، يتفطر كل يوم على الورق ، ولا يهدأ أو يلدوى ؟ كيف احتالت جميلة حتى ضمت أم أحمد في صفها ؟ وسط أى الصعاب تم جوابها ؟ يعتقد عباس أنها تكتب بالكويبا ، لأن القلم أسهل في الإخفاء من الريشة والدواة .

ما كان يظنه هوأ وتسلية القلب إلى شغل شاغل ورباط وثيق . أصبحت هذه الخطابات جزءاً من حياة عباس ، لا يستطيع أن يستغنى عنها . هو من قبل يحىء أم أحمد يفتش عن جوابها ، ولا يرسل البريد إلا بعد أن يتأكد أن ليس به جوابات من جميلة . فإذا ظفر به وضعه في جيبه وتملكته حتى العاشق ، لا يطيق مرور الساعات التي تفصله عن اللقاء .

فعباس يختار لقراءة هذه الجوابات ساعة متأخرة من الليل ، وربما بين كأسين . يجلس بجوار النافذة ، سند ذراعه على مائدته ذات الأرجل الثلاث ، وجهه في نعمة ضوء المصباح ، ولكن في تقاطيعه الساهمة حزن بعيد عن الانقباض مستريح غير قلق . خلفه كائن قريب منه ، إن أراد أن يراه ، فما عليه إلا أن يدبر للنافذة وجهه فيقابله .

ليل في ظلمة العمى ، تافع به الكون مرعماً ، هبط على الفضاء حملاً
ثقيلاً ، أحاط بالأرض كالقيد ، غطى الحقول كالقفن ' ولف
القرى كالضهاد . وانحدر - ولاحد لاتساعه - إلى الشقوق فاحتواها .
ثم تلفت يبحث عن مدخل النفوس التي يعلم أنها تستقبله وتنشر به
فاحتلها يتمطى فيها . هو الآن في كل زورة لكوم النحل يتسلل كاللص
إلى قلب عباس ، على غفلة منه ، كصندوق الراديو لا يعلم السر الذي
يحتويه . . إلا إذا ضغطت يده على مفتاحه .

لا ينتهي عباس من قراءته حتى يقشاه الوجوم . في قلبه وسواس
خفي يشعر أنه صادق لا يخطئ . يهمس له أنه يطل على الفصول الممهدة
للأساء ، ويكاد يحس يده خفية تجذبه شيئاً فشيئاً من غباً المتفرج
المجهول ، إلى حلقة النزاع التي تضم رأسين لا يشعران بالسيف
المعلق فوقهما . . حتى يصبح الخطر واحداً للجميع .

في الحياة مصائد تعلق بها قدم الإنسان من حيث لا يحتسب ،
فلا يستطيع الخلاص منها وإن أجهد نفسه . فهل كان يخطر على بال
عباس عندما فتح أول جواب أن قدر هذه المراسلات سيقاطع قدره
ويختلط الاثنان جميعاً ؟ أن تكون في أول الأمر لعبته ، ثم في النهاية
مصرعه ؟ لم تصبح مراسلات بين اثنين . . بل بين ثلاثة ولعل أكثرهم
تأثراً بها من لم يخط فيها حرفاً .

« تقلت في الشرب شوية . وفي الوقت ده بقيت أنام الليل وأنا
خايف ، وجاءت لي أحلام مزعجة . وفمت مرة وأنا مفزوع أصرخ .

ما فيش حد في البيت غيرى . آخر ما غلبت اترجيت غفر الدرك أنه
 يبقى دايمًا موالينى . فات على كده حسة ثلاثة أشهر وأنا ما يفوتنيش
 جواب واحد . كنت الأول أنخن حاجات كتيرة ، لكن بعدين فهمت
 من الجوابات تاريخ البلت دى من أوله لآخره ، لكن من هي ؟
 ما عرفتهاش أبدًا ولا شفتهاش . كنت خايف لو لمحت لأم أحمد تكون
 مرة بنت حنت ، تفقسنى وتودينى في داهية مرة ملعب مش مساهل .
 اتشمنت من هنا وهنا عرفت أنها تدخل كل بيوت البلد تقريبًا . ازاى
 أعرف ؟ مش ممكن . بقيت أبص للبنات الى ماشين . كلهم الطرحة
 على وشهم ، منقوفين في ملايات سودا ، مصبوغة منيلة تخرخش زى
 الورق . يمشو لازقين في الحيطه زى الى راح يدخلوا فيها . ما تلمحش
 وش واحدة منهم . بين فيهم تكون جميلة . حاجه تيجن . كل
 واحده أشوفها أحسن أن قلبي يتنفض ، مش يمكن تكون هي ؟
 كل الى عرفته كان على أم أحمد . كل ما استفهم الاى ناس
 كثير يعرفوها ويحكولى عنها . ولما فهمت السبب في إن جوابات خليل
 تيجى عليها ، عرفت المسألة من أولها لآخرها .

الفصل الثالث • جميلة وبنت ناس

١

كوم النحل من أعمال مركز . . . بأسويط . ليس فيها أحد يستطيع أن يجيب : هل النحل هو الذي خلق البلدة ؟ أم هي التي خلقت لنفسها هذه التسمية ؟ كل ما يظفر به الباحث سطر ونصف في خطط على مبارك : « مشهورة بجودة عسلها . بينها وبين مركز . . . خمسة عشر كيلو متراً » . لم يقرظها باسم أسرة واحدة مشهورة ، ولكن الظواهر تدل على أنها بلدة قديمة . قد يرجع سبب إهمالها إلى أن آثارها لم تكتشف بعد . فهي لم تتأثر بالطوفان العربي ، وتكاد تنفرد عن بقية بلاد المركز بأن اسمها ليس مسبوقاً « ببني » ، أو ينم عن اسم قبيلة . هي واقعة على الجسر « الطوالي » . بعدها عن الجبل نفور ظاهر عن حياة البدو . وارتفاعها عن وسط الخوض ترفع عن الزراعة .

والأغلب أنها ظلت طول عمرها في تجارات تعيش زمناً ثم تختفى . فلما وقعت على النحل — ولا يعلم متى — لم تستطع ان تتخلص من قبضته . وشملها هذا الحيوان الخنثى العجيب ضمن مملكته ، فأدخلها خليته لالبعظتها بقيته المرمرية ، بل بشهرته واسمه .

وسال بعد ذلك بخت مصر ، وذوت صناعاتها ، وجاء يوم تفرق النحل فيه من خلاياه إلى الثقوب وفجوات الشجر ، ثم باعه الكون وغاب . لم يبق من هذا التاريخ سوى الاسم ، وبعض خليات من الطين على أسطح قليلة . يرزق منها ومعاشها متوقف عليها ، يبوت قبضة تربي النحل ورائته لا اختياراً عن تلقين لا عن سعى . تجارتهم محاطة بسرهم ككهنة دين هدمت محاريبه في نظر بقية السكان الذين غمرتهم الزراعة في ذلها واستعبادها . فليست تملك كرم النحل — على اتساعها وكثرة سكانها — سوى الأقل من عشر زمامها ، والباقي وقف لسلالة من الشر كس لها قصر خرب في البندر .

من تجار النحل في البلدة المعلم سلامة . رجل يقول عنه المسامون إنه « عضة زرقه » ، ومع ذلك لا يشعرون إذا جالسوه بأي كره له . لا لأنه يحكم مهنته بعيد عن المساق ومشاجراتها والخلود وخصوماتها ، والمولثى تنزل في البرسيم ، والماء يمر بالقوة ، بل لأنه رغم ما يقال عن شيبته الزرقاء (أيضاً !) لا يكاد يفترق في مظهره ، في أخلاقه وعاداته ، عن بقية المسلمين . اللبس واحد ، والعمامة فوق رأسه عليها المقدار ذاته من التراب . تتحجب امرأته في الطريق كأهل البلد .

هو أرثوذكسى ، يزهو بزيارات القسيس له ، ويأخذ أسرته كلها للكنيسة ، فيجلس هو تحت ، وتجلس امرأته وبنته الصغيرة جمالية فى الشرفة محجبة بالشيش.. ويبدأ الجميع فى ترتيل صلاة ، بعضهم يقرأها من الكتاب ، وبعضهم لا يحفظ النعمة فهو متردد ، ولكنه يسير بسهولة بعد ذلك عندما ينتظم الجميع ويحملونه معهم ، يقودهم المعلم سلامة ، يحفظ كل الصلوات نغماً وكلاماً ، عن ظهر قلب . صوته أجش غليظ ، يقال عنه إنه كان فى شبابه أحلى أصوات المصلين ، ثم أتلغه الكبر والدخان . وينسى المعلم سلامة نفسه ، ويحنى رأسه على صدره . ثم ينتبه بين حين وآخر لصوت رفيع ، كله تضرع وخشوع ، هو صوت جميلة ، ترث أباهما فى ذوقه الموسيقى ، لا يشعر به أحد ، ولكن أذن الأب تصطاده من وسط التيار .

وفى يوم هبط البلد مبشر بروتستانتى من أسويط . وقف فى الشارع يعظ ، ثم اتصل بالأقلية القليلة التى على مذهبه ، وتوصل منها إلى الاختلاط ببقية الأقباط . فى يده أمينة يلوح بها ويفرئ : « فى أسويط مدرسة للعيال وللبنات مجانية ، قراية وكتابة ، وشغل الإبرة والمطبخ . إنجليزى من الأصل ، المستر كارتر الأمريكانى والمدام أليس . مين يقبل ؟ مين عاوز ؟ فيها قسم داخلى ... »

الحب الأبوى وحده هو الذى زحزح المعلم سلامة عن تعصبه ، وأسلم جميلة ، ولم تبلغ العاشرة ، وقلبه يفيض بالأمل أنها فى يوم ما تكون معلمة فى المدرسة التى تدخلها الآن تلميذة .

خرجت جميلة من سجن كوم النحل إلى بحبوحة المدرسة . بعيدة عن أهلها ، وسط زميلات شياطين ، لاتعطين المعلقة ظهرها حتى يعلو ضجيجهن كلغو الحمام ، حشوه ضحكات وأصوات غضب كله دلال . يداعبها ويلاعبها . يقتلن الوقت في الفسح ، ويتبادلن خلصة روايات كل سحرها من وهم قارثها .

في نهاية كل سنة تعود جميلة لتشيع من « برام الرز بالحمام » ، « وتشبرق -ياحبة عيني ! » وهي محرومة في أسبوط .

ويوم يمر ويوم يأتي ، والفتاة النحلية القصيرة ، يتجشئ سر الحياة في جسمها ، فينبث ثدياها ، وتعرف الحجل ، وغض العين ، وصعوبة النوم . . .

وأتمت جميلة السنة النهائية ، ودعى المعلم سلامة لحفلة توزيع الشهادات ، فجاء في أحسن ثيابه . كيف يستطيع بعد هذه الفرحة أن يرفض طلبها البسيط ؟ يصحبها إلى « النخيلة » ، لأنها مشتاقة (قوى قوى) لخالتها . أسبوع واحد تمضيته هناك ثم تعود لكوم النحل .
- « لكن مش ح سيبك تغيبى هناك . أملك عاوزاك بالحيل .. »

٢

وأخذها إلى « النخيلة » . لا يعرف أن سبب سفرها ليس شوقها لخالتها ، بل تنفيذا لاتفاق سابق بينها وبين إحدى التلميذات من هذه البلدة . وعد له حرمة لأنه موثق بيمين . فبين جميلة ومريم « أخفى

وحبيبتى طول العمر » ، عهد كله إيمان وغيرة وعتاب . عشق حاد لا تعرفه سوى مدارس البنات .

عن طريق مريم تعرفت جميلة فى النخيلة بأخيها خليل . بين الأقباط — داخل المنازل — قدر بسيط من السفور والاختلاط . هو أكثر الأمر محصور بين الأقرباء .

قد تتمتع القبطية فى الصعيد بالسفور . ، ولكن عدد من يعرفها فى النهاية قلما يزيد عن الذين يرونها لأول مرة . ولولا تردد مريم على المنزل واكتسابها لقلب الحالة ، لما تمكنت جميلة أن ترى خليل أو نجتمع به — فيما بعد — فى خلوة بإحدى الغرف على غفلة من خالتها .

هو أول شاب تراه جميلة عن قرب ، ولما يَمْض على اشتعال جدوة شبابها وقت طويل . وزاده قيمة فى نظرها أنه أخو مريم « أختى وحبيبتى طول العمر » . خدع نفسها لإكبارها للصدايقة ، فانسأقت دون أن تشعر إلى الإعجاب بالأخ . ولكن هذه كلها ظروف خارجية ما كانت تستطيع أن تتسلط وحدها على قلب جميلة لولا أن ساعدها شارب صغير — صغير جداً — شعر خفيف ، يزين شفته . فى حديثه لثغة لا ينساها من يسمعها . خده لم يعرف الموسيقى إلا من وقت قريب . يحمر ويصفر إذا تلاقى نظراهما .

كان الحديث بينهما فى أول الأمر صعباً ، غير أنه سهل بعد ذلك لما قص عليها أنه درس مثلها . (فهو بروتستانتى) فى مدارس

الأمريكان ، وأن فرحه بإتمام دروسه لا يقل عن فرحها ، فهو موعود
 بوظيفة مدرس في إحدى مدارس الأقباط بالإسكندرية ، وسيسافر
 إليها عن قريب . وأراها قلم الأبنوس الذي فاز به للحصول على أعلى
 درجة في اللغة الانجليزية . هل تتكلمها مثله ؟ وأسرع يقترح عليها ،
 كمعادة التلاميذ ، أن يتكلما بها ، وهكذا . وتنقل الحديث بينهما
 فإذا بعقلية الفتى في مستوى عقلية الفتاة . أغلب ذكرياتهما عن المدرسة
 فكاهتهما مستمدة من التلاميذ والمدرسين ومختلف شلوذهم . وأزال
 هذا التشابه ما بينهما من كلفة . وشعر خليل ، بعد هذه الجلسة ، بميل
 معظمه صيباني نحو جميلة ، وزاد تردده على المنزل متعمداً الانفراد
 بها . أمسك يدها . ثم لمس ثديها ، وقبلها . ونسي نفسها في إحدى
 هذه الفورات واجتبي منها الشباب جزيته .

لما انتهت السكر ، لم يستيقظا على منظر مقبض أو قلب ملتاع .
 بعد أيام قليلة استدعى لوظيفته بالإسكندرية . وأخبرتها مريم أن
 أمنية أمها أن تزوجه في أقرب الفرص . ووعدها خليل أن يعود
 بعد شهر واحد لكون النحل ويخطبها من أبيها . ستبضع أمه عشرة
 قراريط تملكها ، ولا يظن أن أباه يعارض أو يرفض . وكادت
 جميلة تقبض على سعادتها .

ظهر أول خلاف بين طبيعتهما عند اقتراب السفر . كانت
 تعتقد أن زحمة ترتيب « الشنطة » وتوديع الأقرباء لا يجوز لها أن
 تغطي على اهتمام الحبيب بحبيبته . في حين أنه شملها ضمن هذه المشاغل
 لا يدرك إحساسه ان اعتدأه بإحداها يتنقصه في نظرها ولا يرثه .

على أنه استطاع أن يختل بها ، وكرر لها ، وكان صادقاً ، كل يمين . وجسم لها المستقبل مرة أخرى في صورة سعيدة محققة . مسألة وقت لا غير . ثم هفاه لسوء حظه طبعه الصبياني ، وطلبها من جديد وكانت جميلة واثقة من وعوده ، وربما لم تكن أقل منه ميلا لطلبه ولكنها أثناء نشوتها ، أشرق عليها إدراك أشبه بالإلهام ، أحست معه بفراغ بارد يدب في قلبها فيطفئ من هيجانه وناره . في الحاح خليل عليها لتجيبه إلى طلبه وهو على أهبة السفر — دليل مؤكد على خفته وقصور نظرة عند موطن قلميه . يهس لها وسواسها : لم العجلة مادام سيعود ؟ أهو صرح عال على رمل ؟ هزة واحدة هدمته حولها حطاماً . ودهش الفتى المتعب عندما رآها تتشبث برقبتة . تحوطها بلراعيها ، وتسند رأسها على كتفه ثم تحضنه . تحضنه إلى صدرها وتهللى كالحمومة :

— خليل ! خليل ! خليل !

لم يتعب خليل في تهديتها . فهي التي استفاقت إلى عبث ما بدا لها من جديد أنه وهم متسرع . وعاد إليها ، بعد جهد ، اطمئنانها على مستقبلها ووئوقها بخليل .

وبدأ يتكلمان عن فترة الغياب ، واتفقا على أن يتكاتبا . فأخرج خليل من جيبه ورقة وقلماً وكتب لها عنوانه بالاسكندرية ، فهو سيتزل ضيفاً على أحد أقربائه ، أخذتها جميلة وقرأتها . ثم التفت إليه تبسم ، وكأنها تعاتبه . مزقت الورقة أمامه :

يستحيل أنساه .. ما تخافش .

ولكن كيف يرد عليها ! أنها ستغادر النخيلة عن قريب .
وفي كوم النحل لا تستطيع أن تستلم خطابات باسمها بدون
علم أبيها . إذن فلتكتب له ، فهذا لا يصعب عليها ، وليصبر هو
لا يرد عليها حتى تعود لبلدها ، وتهديه إلى طريقة تمكنه من مراسلتها .

٣

في مساءه الأخير جاءها ليودعها . قلق السفر يملكه ، فهو
عجل مشرق الوجه لا يستقر على فكرة . لم تصدمه الفتاة بوجه عبوس
أو عيون دامعة ، بل وجدت نفسها تشاركه ، صادقة طيبة النفس ،
بهجته . هل يستطيع أن يحدد لها ميعادا لرجوعه لكوم النحل ؟ بعد
أول مرة يقبض فيها مرثبه من عرق جبينه . لن يغيب أكثر من شهر
واحد . هل سمعت عن فلنس معوض ؟ لا ؟ إنه من أقربائه
البعداء ، وسيتزل لديه مدة إقامته في كوم النحل

ولما هم ينصرف أمسك خليل بيديها ووضعهما على كتفيه ،
ثم طوق خصرها . عيناها في عينيه ، . السعادة التي تغمره صفت
طبيعته من التصنع والالتفات للنفس ، ولذلك نفلت نظرتة إلى
قلبها وطوى شعوره شعورها .

« أحلف لك بإيه إني مش ح أخونك في الاسكندرية . إوع
تفتكرى .

_ أنا بقيت في إيدك .. اعمل في اللي تعمله .

لأنتي خايفة ؟

لا بس مش عارفه ح أصبر ازاي .

كل ما تفتكري في اكتبتي لي جواب . بس جوابات طويلة
مليانة . عايزك تكتبتي لي كل يوم ولو حته ، وأنا تو ما ح تبعيتلي
عنوان ح اكتب لك على كل حاجة » .

وجلس واجلسها على ركبتيه . قبلها على عنقها وعينها وبين
ضفائرها . ثم توالى قبلاته حارة هوجاء هنا وهناك .. لا يدريان
كم من الوقت مر عليها . ولا كيف تنهى هذه القبلات .

حركة رجل وصوت باب ، قطعاً عليها الخطوة . وقام خليل ..
آخر ما رآته منه وجهه يديره لها وهو يخرج . وجهه طفل سعيد فرح .
بعد يومين كتبت له من النخيلة جوابها الأول .

٤

أقفر النخيلة فأرسلت لأبيها أن يأتي ويأخذها .. وعادت لكوم
النحل معها حقيبة بها « برانيط وكتب » : أعجوبتان في منازل الطين
والقش ..

وتوالى على جميلة زيارات أقاربها وجيرانها ، لا تجد وقتاً
تفكر فيه كيف تدبر طريقة يرسلها بها خليل .. وكتبت له
جوابين تخبره بأمرها ، وتطلب إليه أن يصبر قليلا .

وبعد أيام كانت في مجلس كله فتيات من سنها ، ينصتن لفتاة
تفصي لهن بمخاوف هي على كل حال للذبة ، بدليل ما في وجوه
المستمعات من تطلع وعيونهن من بريق . دخلتها بعد يومين ، وهي
لا تدري شيئاً من أمر أول ليلة مع زوجها . ماذا سيحل بها ، هي
خائفة مضطربة . توالى عليها ردود كلها عن سماع أو اجتهاد .
وكانت حجتن جميعاً واستنادهن الوحيد (أم أحمد هي التي قالت) .
هو اسم لا تجهله جميلة ، وإن لم تر صاحبه من قبل . لا تعرف عنها
الكثير .. ولكنها لم تقم من المجلس حتى علمت كل أخبارها .

هي امرأة تزوجت أربع مرات . فارقها كل زوج بطلاق
بعد عشرة قصيرة . وتسنى لها بفضل هذه المجموعة أن تشتري بما
جمعته من متأخر المهور فدائناً ونصف بجاموسة . هي ما شطة
« بلانة » في الأفراح ، حادية بالغناء عند طلوع الحجاج ، والمقدسين !
— أوجوعهم . داية إن استغاث بها جار قريب ، تعرف وصحات ،
وتفسر الأحلام ونحسب النجم تفوح منها دائماً رائحة الماورد ، كل
مناسبة اجتماعية تكون فيها أم أحمد بلا دعوة .. إلا في المآتم ، فهي
لا تطيقها . ولعل ذلك لأنها لم تخلف من زواجها المتوالى ، ولم تفجع ،
كعظم المتطوعات بالطم و « الصوات » ، في ولد عزيز ..

إذا قابلت فتاة كلمتها رأساً ، ولو كانت تعرفها لأول مرة ،
عن جسمها وثوبها وشعرها وجمالها . وإن كانت امرأة سألتها
عن زوجها وعاداته ونوبات مرضه وهجرانه .. كم في كوم النحل

من رجال يجهلون أن زوجاتهم تلقين عن أم أحمد نصائح أشبه بالدروس . فمعظم النساء يعرفنها ، ولكن القليل منهن من تعلم أن أم أحمد قد تمثل في بعض الأحيان - عندما تكون « رابطة » - مع التلميذة نصائحها ، لتكون دروسها عملية أقرب للفهم ، وأن هذه الدروس هي سبب اطمئنان فتيات كثيرات في لياهن الأولى مع أزواجهن ، أو ارتفاع قيمة زوجات في نظر رجالهن بعد هبوط وإعراض استطاعت جميلة أن تتصل بأم أحمد . ورغم سمعة هذه المرأة - أو ربما بسببها - شعرت بوثوق شديد بها .

أفضت لها بقصتها ، وإن كتمت عنها زلتها ، وبقتها حيرتها في شأن الجوابات ، فكانت أم أحمد هي التي اقترحت عليها أن يكتب لها خليل على عنوانها هي .. ستحفظ الرد من « جوه حبابي عيني .. » وتوصله لها .

وعلم خليل بالعنوان .. واستلمت جميلة جوابه الأول كاللقية .. فقليل من الناس من يستطيع أن يكتب خمسة جوابات قبل أن يصله الرد الأول .

ليس يصعب عليها أن تكتب الجواب بقلم كوييا خفية في منزلها . أحياناً تعطى الجواب لأم أحمد ، وهي التي توصله للبريد ، وأحياناً تكلف به أحد صبيان الحارة على ظن أنه من المنزل وبعلم أبيها .. وهذا لأن مكتب البريد في السوق أمامه دكاكين ، وأناس

جالسون أقوياء العيون ، وهى تخشى أن يعرفها أحد ، فيتصل بعلم
أبيها خبر ترددها على المكتب وينفضح سرها .

فى أول الأمر اقتصر حديث خليل على حياته المدرسية وعلاقته
بالتلاميذ ، وتعبه من الدروس ، ثم بشرها فى خطاب تال أن ناظر
المدرسة مسرور من اجتهاده ومواظبته ، وأنه أوصى بمنحه علاوة
وبترقيته .. وأنهم لذلك اختاروه لوظيفة نزلت بمدارس القاهرة ،
وسيسافر إليها عن قريب .. أليس هذا من بركاتنا عليه ؟

لم يمض وقت طويل حتى جاءها خطابها من القاهرة . هو فى
وظيفته الجديدة منذ يومين . ما أتعب النقل وزحمة السفر ! ولكنه
مسرور . وطلب منها أن تراسله منذ اليوم على شبك بريد الفجالة لأنه
يستطيع أن يمر هناك كل يوم ويستلم خطاباتها أولا بأول .
وانتظمت المراسلة بينهما .

الفصل الرابع . فرحة ماتمت

١

وفي خليل بوعده ، وجاء بعد شهرين لكوم النحل ، ونزل لدى قريبه فلتس معوض . يظلم هذا الشاب من يثمه بأنه غشاش أو مخادع . كل ما في الأمر أنه قليل التجربة ، يقدم بسداجة على أدق المواقف ، جاهلا بما في شعائر الحياة من صلابة . فقد جاء لكوم النحل مفلس اليدين ، لأن أمه لم تبع الطين . لا يدرى بالضبط إلى أي مدى يكون مسعاه . كل ما أخبر به أمه أنه سيخطب جميلة . يخطبها فقط من أبيها .

وقابل خليل مع قريبه فلتس المعلم سلامة ، وفاتحه برغبته في الزواج من جميلة . فارقهما الأب وهو فاهم أن المسألة خطوبة فقط ،

لأنه ينتظر أن يكون مع الشاب أمه أو أحد أعمامه . ولكنه عندما أخبر زوجته الخبر ، سهلت عليه أن يتم الزواج كله مرة واحدة . يجوز أن تكون أم العريس مريضة أو عجوزاً لا تتحرك ويتلف أمل البنت . ثم ما داعى الانتظار ؟ وكانت جميلة بعاطفة نصفها محبة ونصفها استبداد فقد ضمت أمها إلى صفها بل كانت تحركها طوع إرادتها .

في الجلسة الثانية لم يشعر خليل أنه ينساق إلى التكلم في الإكليل وتاريخه . ثم وقفت المفاوضة مرة أخرى . عندما فهم المعلم سلامة أن خليل لم يأت بالمهر . مرة أخرى زالت هذه المشكلة في منزله . وقبل بلحاح زوجته أن يعقد الإكليل ، على ألا تسافر جميلة للقاهرة إلا بعد دفع المهر ، فهو لن يخسر شيئاً الآن . ولن يبدأ في شراء الجهاز - من ملابس وصيغة - إلا عند قبض النقود .

وتحركت المساعي من جديد .. وقابل الجميع القسيس ، فإذا هو ماء بارد يصب بلا رحمة على نار عجلتهم .. العريس بروتستانتى والعروسة أرثوذكسية .. فلا بد من أن يكتب لمصر ليستأذن هل جاء بشهادة من كنيسة بالنخيلة أنه غير متزوج ؟ إلخ إلخ . شروط شكلية ، ولكنها تستلزم وقتاً . وخليل في إجازة قصيرة قاربت الانتهاء . إذن يعود مرة أخرى . لم يستطع أن يخفى بجميلة قبل سفره . لم تأس على ما فاتها ، فأمامها المراسلة بينها ، سيتفاهان بها من جديد ، وستبث الورق كل ما كانت تود أن تقوله .

ولما انتهت هذه الحلقة بسفر خليل ، أحس المعلم سلامة أنه يستيقظ من حلم . أين هو وقت أن كان يساق إلى كل هذه التسهيلات لأجل هذا الفتى الغريب عنه ؟ وحمد الله في سره أن المسألة لم تم ، يلزمها أولاً تكملة ما في شكلها الخارجى من نقص يلحظه الناس . على الأقل تأتي أمه ليرى وجهها ، أو يقدم لها خاتماً . ثم هو يريد أن يسأل بعض معارفه في القاهرة عن حقيقة مرتبه ، وعن مركزه في المدرسة . ولودرى المعلم سلامة أن في بطن ابنته جينياً ينمو يوماً بعد يوم ، كمعقرب الساعة لا ترى العين حركته ، وهو دائب السير لمصير محتوم ، لما حمد الله كما فعل ، ولأكل الهم قلبه .

٢

ليال لا تنامها من الفرح ، تتلوها ليال من الكرب . كانت قد ألهبت عواطفها بالسياط ، وعلقت كل آمالها على مجي خليل ، فخافها حظها الأخير . لا تجد أصعب على النفس من الفرصة تملكها اليد ، ثم تنساب من خلال الأصابع كالماء . لم تكن في إشباع شهوة أو تحقيق حلم ، بل في انقاذ شرف . ولماذا لا نقول انقاذ روح ؟ فمن يلزمها أن حنان هذا الأب قد ينقلب فجأة إلى قسوة لا تدين ؟ أصابعه التي تجوس خلال شعرها قد تتصلب في خيانة مباغته وتطبق على حلقها . جميلة ! أنت ! التي كنت أعزها ولا أرد لها طلباً ، تفضحني شيبتي . تضعين ذفني في الوحل ، واسمى في أفواه الناس

يمضغونه على مهل ، كأنه العلك اللذيذ ، على مهل من هنا ومن هنا .
يتبادلونه كأنه الهدايا ، ويشرونه عندما يملون الحديث .

لمن نشتكى ؟ فتاة لا تعرف من المآزق والمخاطر شيئاً ، ترى
نفسها أمام مشكلة ليست في الحياة مثلها . هي عقدة كلها اصطدام
ونزاع ، وخيوطها من ديانة وتقاليد ووهم ، موشجة بحكم الدم
والجسم . وسر الحياة لا يهمه ماذا يعتقد الناس . لا رحمة فيها .
جبروتها قلما يستطيع أن يثور عليه رجل يعيش في وسط الصعيد
وبعقلية يرثها عن أجيال لا تتسامح ولا تلين .

اصفرت جميلة وتاهت نظرتها ، وتعلمت أن تحتضن الوسادة
بذراعيها ، وأن تسرح لا أن تنام . تتقلب على الحنين . هل من
مخرج ؟ ليس إلا أن يأتي خليل من جديد .
وعادت لخطباتها ، فهي كل ما بقي لها . تنفخ في روح أملها ،
وتستحث خليلاً على المحبة .

٣

في هذا الوقت بدأ عباس يفتح الجوابات . لم يفهم في أول الأمر
أن جميلة قد دخلت في دور الأمومة . فهي بعد أن أخبرت خليل
بسرهما في خطاب سابق لم تعد إلى ذكره . تشاؤمها ونجلها يثنيانها .
تحتل عارها فكرة ، ولا تطيقه على الورق مخلوقاً من صنع يديها
مكشوف الوجه ، بشعاً يحملق فيها . واكتفت أنها في كل خطاب
تناديه ، وهو فاهم .

وظل عباس جاهلاً سرها وإن كان في دخيلته إدراك مبهم بأن هذه الخطابات تحوى شيئاً من النقص والتناقض . فكان ما بها من تشبث بعيد عن الارتواء ، وعاطفة لا يضعفها التكرار ، ولا يطفئها صقيع تيار يخلفه الزمن في جريه قد جعل عباس يراها وهو مأخوذ بها في صورة معوجة ، تزيد من إعجابه ، بقدر ما تمد في ظنونه . ولكنها — كلوحة السيما — تدلس الفرع بمنظر أبت ، وترد منطقته عندما تكشف عن أساسه — أدرك ما كان غائباً عنه عندما وجدها في خطاب غريب تنفجر بمرارة . مسكينة ! تقول له لماذا لم يأت ؟ هل نسي ما أخبرته به ! أم لم يفهم ؟ لعله في فسحة يضحك وينسى بين أصدقائه يطارحهم النكات . فهل فكر فيها ؟ تجاوزت شهرها السادس وأصبح منظرها مفضوحاً . منذ أيام وهي تدعى المرض حتى لا يراها أبوها . جاءها القسيس وبارك وصلى . وجه أمها مسود كسيف ، لعله هو الذى ينم عليها . لا يزال في الأمر مخرج . لو جاء ! لو جاء وعقد عليها وأخذها معه . بعيداً بعيداً عن هذا الألب وهذا المنزل . لتعيش طول عمرها خادمة تمسح حذاءه ، ليضربها كل يوم ، ليعطها عيشاً حافاً كالكلاب .

« لما قرئت الجواب حسيت لأول مرة إن المسألة مش هزار ولا لعب عيال . أثارها حاجة خطيرة وعزنة وأنا مش دارى . افكرت جواباتها كلها وفهمت . وقتها بس فهمت . أقول لك الحق قلبى وجعنى علشان البنت دى . طول الليل وأنا أفكر فيها .

لو كنت في مصر يمكن ما كنتش أترعب علشانها . لكن هنا في
في كوم النحل حاجة مخوفاني . حتى الهوا اللي الواحد بتهنسه يكتم
الصدر ويخفق الواحد . ما فيش رحمة ، كل أملى حطيته في الرد
اللي ح يجي . ما ليش صبر أستنى . أنا باللي ماليش دعوة ولا حاجة
تمسنى ، أمال هي بتعمل إيه ؟ »

بعد أربعة أيام جاء الرد . لم يستطع عباس أن يصبر حتى يأخذه
معه إلى منزله ويقرأه في خلوة ، بل فتحه في المكتب وبقية الخطابات
أمامه لم يفرزها بعد . وقرأ :

« عزيزتى ونور عيى

علم الله أننى ما تأخرت في الكتابة إليك إلا لأننى كنت مشغولا
ومشغولا جدا ، وأنا يا عزيزتى لم أرد إخبارك من قبل بسوء التفاهم
الذى وقع بينى وبين ناظر المدرسة حتى لا تشكلرى من أجلى .
كل الحناقة على درس خصوصى والسبب في التوقيع شخص كنت
أعده صديقى كما قال الشاعر :

احلر عدوك مرة واحلر صديقك ألف مرة

وتصورى يا عزيزتى أن الناظر أراد أن يؤذنى ، وسمعت
من الباشفراش أنه شرع في كتابة تقرير ضدى ، حتى أصبحت
أترحم على أيام الإسكندرية ، وحتى يشتت من حظى ، وقلت لإراد:
الرب . ولكن محبة إلهنا خلعت ناس من حيث لا أعرف يتوسطوا

وأخيراً قررنا إعادةنى للأسكندرية وهذا آخر جواب أكتبه لك من مصر ، لأننى مسافر اليوم بقطار المفتخر . فأرجوك يا عزيزتى أن تكتبى لى من الآن فصاعداً على عنوانى القديم هناك . عزيزتى أظن فهمتى الآن لماذا تأخرت فى الرد ، ولماذا يستحيل على السفر إليك . لولا المشاكل التى شرحتها لك ، لكنت كلمتهم فى إجازة قصيرة بحق وخقيق ولكنى زى ماشفتى ما فىش فى إيدى حيلة . ولكن لا تخافى المسألة ملحوقه . استفهمت من ناس قالوا لى على أدوية كثيرة ووصفات ، فأخبرينى أبعث لك بدوا ينفعلك . وهذا فقط حتى تأتى إجازة الصيف وأحضر لك .

عزيزتى - أخبرك أن أختى مريم ستحضر طرفى للفسحة بالإسكندرية ، وأمى فاضلة لوحدها رجلها بتوجعها ، ومش عاوزه تسافر .

عزيزتى - عندى كلام كتير مخليه لما أروق فى الإسكندرية أكتبه لك من هناك .
ألف قبلة من المخلص إليك دائماً .

« خليل »

« شفتش بواخة أكثر من كده ؟ هو دا جواب يكتبه المغفل »
دا . زى الى أنا حاسس بقلب البنت لما تقراه ... سكاكين تقطع فيه !!

الفصل الخامس سقطه البوسطجي

حطيت الجواب على جنب فوق الطراييزة عبال ما اخلص من
من الشغل واقفله على مهلى . قلت فى نفسى أصلاً ما هواش مستعجل
قد كده . ويمكن يبنى ثواب منى لو أخرته عن البنت المسكينة شوية .
ومسكت فى الشغل زى العادة كل يوم .

ملأ الختامة حبراً جديداً . وأصلح تاريخ الختم المستدير ،
ثم جاء بالخطابات وربها كلها على ظهرها كوماً واحداً ، ثم بدأ
يختمها فى حركة آلية سريعة متكررة . مرة على الختامة ومرة على
الجواب . خبطة مكثومة ، وراءها رنة خشب . هذا الصوت الذى
يألفه كل من يعيش بمكاتب البريد أو يمر بها . هو شهيقها وزفيرها
وهى تلهث فى عجلتها .

لسوء حظ عباس دخل عليه في هذا الوقت شيخ الخفر . هو رسول
العمدة يسأله متى يخرج من البيت . هب فيه عباس وهو محتقن الوجه
هائج . نخم البريد في يده يرتعش . ما هذه « الخوثة » ؟ كل يوم :
البيت ، البيت البيت . يكفيه وجمع دماغ . إنه لا ينادى طرشاً ولا
يتكلم بالسرياني . هو باق لا يتحرك لو عيد ولا لرجاء . إنه ليس
بطفل يهزل . وحتى يعتقد العمدة ويربح نفسه ، ها هو هذه المرة
يقسم بالله ثلاثاً أنه لن يخرج من الدار . والله العظيم وبالله الكريم .
نسى أن الختم لا يزال في قبضته . ولم يهتم في حديثه أين تقع
ضربة الختم . وخائنه يده فهوت بالختم على جواب خليل المفتوح
وقبل أن يعي عباس لنفسه كان قد انطبع تحت إمضاء خليل ختم
(كوم النحل - وارد) في استدارة أم خمسة ، تلمع الحروف والأرقام
جبر زفر ملعون .

وقف أمام خطئه ذاهلاً تركبه الأوهام . لو حاول أن يمسه
لحرق الورق ، وكأنه جاء يكحلها فأعماها . ولو أقفله وسلمه لأم
أحمد ، فلا بد أن تكتشف جميلة سره وتتصل بخليل فيشتكيه
من يدري ؟ وربما قدم الخطاب دليلاً ضده فيكون جزاؤه الرقب
مؤكداً .

« بقيت بين نارين . إن سلمت الجواب انفضحت . وإن قطعت
ولا حرقته تفضل جميلة تهري وتنكت مستنية الرد والذنب ذنبي أنا .
لكن قلت في عقل بالي : ياما جوابات بتضيع في البوسطة . لو

ما رحلهاش بالمرة يكون أحسن ، والمسئولية تبقى متوزعة بيني وبين العموم في مصر . والجوابات العادية دى ما عليهاش كنترول . وغايته لما يشوف خليل أن جميلة اتأخرت عليه في الرد يكتب لها تافى من الإسكندرية ، وح تفهم أنه راح هناك ، وتكتب له العنوان اللي عارفاه . إيه العنوان دا أنا ما أعرفش ، هى لازم كتبت له عليه كام مرة وحافضاه كويس .

واحفظ عباس بالجواب . جاءته أم أحمد فhez لها رأسه . عادت بعد الظهر « مع الأسف ما فيش » في الصبح مرة أخرى : « لسه ما جاش » : بعد الظهر . « ما كنش ينز » تافى يوم : « النهاردة الحمد ما فيش بوسطة » يوم الاثنين : « يمكن العصر » في العصر : « يمكن في الصبح يبي » . كل هذا والجواب مطبق بظرفه في جيبه .

« عاوز أكلمها وأفهمها . أقول لها خليل راح الإسكندرية . لكن مش قادر . ماتعرفشى أنا في الأيام دى كنت متعلب قله إيه . ولسه اللي جاي ألين وألن » .

في اليوم الخامس جاءه الخطاب الذى كان ينتظره بلهفة ، خليل كتب من جديد من الإسكندرية . لم يفتححه . ونوى أن يسلمه إلى أم أحمد لحظة أن يراها فيكنى ما سببه من تأخير . ولكن أم أحمد لم تأت . انتظرها إلى العصر فلم تظهر . بعد التشطيب وضع الجواب في جيبه وسار إلى مسكها . لم يقرب من رأس الحارة حتى رأى

النسوة حول المنزل كرش الملح . كلهن « مبشقات » . دق قلبه
وكذب وسواسه . وسأل فأجيب :

أم أحمد تعيش انت .

وعلا حواليه صراخ الناحات ، وخيل إليه وهو مشنت الدهن
أن كل هذا الجمع الأسود كسرب من غربان الشؤم ، يصوت عليه
وعلى مصيبيته الثقيلة وبخته المائل .

« وقفت مذهول . طب مانت مانت . مرة كركوبة في داهية
لكن الجواب الى في جيبى أعمل فيه إيه ؟ الغلطة بتاعى بدل ما تتصلح
اتبيت زيادة . ح اضطر أرجع الجواب للعموم وأقول عليه :
(المرسل إليه متوفى) . لو كنت ما بوظلش الجواب الأولانى كانت
جميلة عرفت مطرح خليل وكتبت له على عنوان جديد بعد موت
أم أحمد . وافقت وياه على حاجة . جيت أنا بسلامتى وقطعت الخيط
الى بين الإثنين . والمصيبة أن الغلطة دى ما تحصلش إلا والبت في
كرب . تقريباً بتستغيث . ح تقول عليه إيه ؟ لا زم ح تفهم إنه
يتهرب منها والحدع مظلوم . ويمكن كان يحى لو كتبت له مرة
ثانية . مين يعرف ؟ وأرجع أقول بتخلقوا الكل سوا أنا عاوز أخلص
نفسى وبس . حرمت ألعب في جرابات العيال دول تو ما يكتبوا
لبعض من جديد . لكن ازاي ؟ ازاي أتوصل لحيلة ؟ ما يمكنش في
بلد زى دى تتشم على بنت أو تسأل . وتساءل مين ؟ دانا غريب
وعازب . وبفرض عرفتها ، أكلمها ازاي ؟ مشيت مش حاسس

بنفسى . أبص للبنات الى فايدين . ياترى ما تكونش دى جميلة ؟
ولا دى ؟ يمكن دى ؟ قايست وحاجة خلتنى هجمت على أول واحدة :
- جميلة ؟

هربت منى ! والثانية :

- ما تعرفيش جميلة ؟

خافت وجريت ! والثالثة دورت وشها للحيط ، ووطت .
شوية شوية ح تقعدع الأرض وح تعيط :

أظن دلوقتى ح تضحك لما تفتكر بلاغ العمدة الأولانى ضللى .
وازاى انتهز الفرصة دى واشتكافى . أنا كذبت عليك وقتها .
ولما سيبتك كنت عيان صحيح . ما اقدرش أقوم من السرير . جات
لى حمى بقيت أهلوس يمكن جمعة .

فى الوقت ده جه للمكتب بدل من أسيوط واستلم الشغل .
لازم جميلة كتبت مدة غيابة لخليل على عنوانه بالفجالة تتعجله وتقول
له على موت أم أحمد والغالب - زى ما قلت لك - أنها فهمته على
عنوان جديد يكتب لها عليه . دا كله علشان لما قمت من العيا
واستلمت الشغل تانى ، لقيت جواب منها على عنوان الفجالة . جواب
قصير تقول له إنها مستنية الرد بسرعة . وضرورى يجى قوام ،
وطبعاً ما كانش فيه مناسبة تجيب له تانى سيرة . عنوانها الجديد للغاية
دلوقتى ما عرفتش ولا اقدرش اضمن يكون هو إليه . لكن خليل
عمل إليه ؟ لازم فضل هو راخر بيعت فى جوابات على عنوان أم أحمد

ولا حش يأخذها .. علشان أنا أكد كلمت البديل ، وعملت حجتي لانة
جديد في البلد ولا يعرفش حد ، وسألته :
— عندكش جوابات لسه ما وزعتهاش ؟

— فيه جوابين ثلاثة . لكن ما تخافشي . أنا روقت لك الشغل
تمام . حتى واحدة أظن اسمها أم أحمد كان لها جوابين رجعتهم
للعوم ، علشان ناس قالوا لي إنها ماتت .

بعد كده جه جواب تاني من خليل . فتجته . إيه الحكاية ؟
ما بتردش عليه ليه ؟ هو زعلان من زعلها . ما لهاش حق تزعل
ما دام فهمها علره . وجواب تاني بعد ده بعشرة أيام تقريباً .
لسه زعلانة ؟ إذا كان فيه حاجة مزعلاها لازم تقولها له . وهوبس
ح يكتب لها جوابات على فشوش وحاجة زي دي ! وبعد كده سكت
خرس . ولا جواب تاني جه منه بعد كده .

الجوابات دي كلها بقيت أخذها . ما أرجعهاش للعوم .
وإيه الفائدة ! وكنت باعمل كده في جوابات جميلة . كل يومين
والتاني يترمي في الصنلوق جواب منها . جوابتها رخرة اللي راحت
مدة غيابي ع الفجالة ، طبعاً لسه ملاطحة في الشباك هناك . ما حش
يياخذهم .

وتاهت نظرة عباس وتصلب وجهه ، وسمرت عيناه على مرمي
بعيد . ليس في وجهه أثر للروح الخفيفة المرتبة الهاجئة . تمثال
من البرونز ، يقصد صانعه إبراز قسوة اللحم ، وصلابة خطوط

البحرين ، والجفن البارز من أثر المجهود . تتبعه حسنى بنظرته ، وهو يعجب كيف تنقلب الطبيعة فجأة . هل يكون هذا علامة على أن عباس مشرف على مرض آخر ؟ أعاده للحياة بسؤاله .

- وجميلة ؟

عاد عباس لحديثه أهدأ صوتاً وأخفت نغمة :

- « جميلة ؟ يمكن بعثته ٢٠ جواب . كل يومين ، وفي الآخر كل يوم . ما عرفتش مين اللى ييجبهم للبوسطة . كنت دائماً الأقيهم الصبح لازم حد بيرميهم قبل ما أحضر للمكتب . فى الأول سألته : ليه ما بيردش عليها ؟ هى مش عاوزة منه حاجة ، بس يفهمها إيه سبب سكوته . »

ثم أخذ كل خطاب يقصر عما قبله . كالنار تنطفىء وتطأطأء رأسها على مهل . حالتها سيئة ، ومصيبتها كبيرة ، ولكنها واثقة فيه لا يفارقها اعتقادها أن كرهها إلى فرج ، فمإذا جنت هى فى حياتها ؟ لا تذكر أنها صلت بقلب بارد ، أو أذنت فى حق الشاب . يارب لماذا ؟ من وسط آلاف الفتيات يختارها القدر ليذيقها المر ؟ من أسابيع وهى لا تخرج من البيت حتى ذوى لونها ، وأمسكت عن الأكل إلا ما يدفعها إليه جوعها .

وساعد جميلة على التهرب من نظر أبيها أنه قلما يأتى لمنزله إلا لينام . تجارته تشغل وقته وتضطره إلى السفر لأسيوط . فى المرة الأخيرة عاد مع الليل بعد غياب غير قصير ، ودخل وفى حضنه بطيخة .

— جميلة ! فأجابته أمها :

— البنت حيانة شوية . سبها .

جواب واحد لا يتغير منذ زمن . سار المعلم سلامة إلى ابنته . لما رآته — وهى فى فراشها — نهضت واقفة . الغرفة معتمة والنور ضئيل . اقترب الرجل من ابنته ووضع يده على رأسها ، وسقطت نظراته على جسمها . ورفع وجهه ، فإذا به قد شاخ فى اللحظة الضئيلة سنين . هو « العضة » الزرقاء حقاً . وجهه فى لون رمادى منطفىء ذقنه مغفرة وشفته « منيلة » . فى عيونه لمعان أصفر ، وكان رأسه صغرت فجأة ، فالعمامة تنزلت ، وهى ثقيلة الدم ، فتقضم نصف أذنيه ، وأدار وجهه لينادى زوجته ، فانفلتت جميلة وعادت إلى فراشها نظرة أخرى ثم خرج .

ونسى المعلم سلامة عشاءه ، وفضلت البطيخة صحيحة .

« رجعت جميلة كتبت تحليل جواب طويل . لازم أبوها مش ح يسكت بعد كده . خايفه منه . خلاص ما لهاش أمل . ثلاث أربع أيام ما يخرجش من البيت . ينفخ ويتهد . كل ما تحس برجله جاية ناحيتها قلبها يقف . لو يجي تحليل ولو يوم واحد ، كل شئ ينتهى . فين هو ؟ فى عرضه . فى طوله . تبوس رجله . يعمل فيها معروف » .

مضت ليال لم يغمض لها فيها جفن ، تنصت لوقع الأقدام وتظن الظنون . على أى شكل ستلقى حنفها ؟ أينحتر حبلأ أم سكيناً ، مخدة

مبللة أم سماً نقيعاً ؟ ونسيت جميلة خليلاً وصمته وكذبه وخيانته ،
واقصر اهتمامها على حياتها . لو تستطيع أن تهرب من الدار لنجت .
ولكن أين السبيل وهي محبوسة ؟

« كتبت له الدور دا يا يلحقها يا يلحقهاش .. لو ما نت مقتولة ...
يكون موتها علشانه . يبقى ما ينسهاش .. ويفتكر في تربتها ..
آخى جواب كان بتاع النهارده . وأنا رايح المحطة الصبح فتحته
وقريته ، كلمتين اتنين بس .

« خليل .. الحقنى ! »

عمرى ما شفت واحد بيطلع في الروح . ولا شفت ميت .
الكلمتين دول خلوا جسمى يقشعر .. تعرف الحروف لما يشخر
ويرفص وقت ما يندبح .. والفرخة لما تجرى ورقبتها مقصوفة ..
كل ده مش حاجة جنب الكلمتين دول .. الجواب ده مسكته
وقطعته .. الباقي اللي في الشنطة زى الرصد قدامى .. هباح يكونوا
أهم من جواباتها اللي ضاعت طغ ! ينفلقوا أصحابهم ويروحوا
في داهية إذا كانوا عاوزين .. جوابات سمجة سخيفة حمها بارد ..
رحت نازل عليهم وهات ياتقطع .. تقولش ساعتها إني باقطع في
هدوم واحد بخانقه .. بغل .. وبعدين ما حساشى بنفسى .. دخت
ورحت في دنيا غير الدنيا .. اللي غايظنى ساعتها ان الدنيا دى حاجة
سخيفة .. إلتهاى لي أنها طرشة . تفضل مهمها صرخت فيها ماشية زى العادة
ما فيش حاجة تقلر توقفها .. ليه زى الطرشة ؟ علشان عمرها ما تبص

وراها .. البنت المسكينة دى داستها وفات عليها. أنا لغاية دلوقتى
ما اعرفش جبرى لها إيه .. أكثر من كده . عمرى ما شفتها ! لكنى
أنا متأكد أن البنت دى ما تت غدر .. والسبب أنا .. ما فيش حد قتل
البنت دى غيرى أنا . .. أنا .. ،

وسكت عباس فخلا حسنى لنفسه . هو كالمترجى فى السرك
تهزه مخاطرة اللاعب ، وإن لم يفته اليقين أنها ككل ليلة -
تنهى بسلام . بيد أن عاطفته جعلته لا يتخلف عن عباس فى قصته ،
يسايره فكرة فكرة ، فاهماً دواعيه . مقدراً أحزانه وهمومه ،
ويشاركه الندم ، ويرثى له كيف هوى حظه وخائنه يده ؟ ويعتقد
كما يعتقد عباس أنه اغتال هذه الفتاة بهفوته ، ولكن حسنى يعلم أيضاً
أنه يستطيع بمجهود صغير أن يغير من نظرة عباس لماضيه ، ويعيد
إلى هذا المريض ثقته بنفسه ... ولكنه وهو الخبير المحرب
لن يقصد إلى غرضه بمحاولته التقليل من حدته وهياجه ، أو بأن يفتح
له عينيّه ليريه مبالغته الظاهرة وتهويله . فهو يعلم أنه لو فعل ذلك ،
لما زاد شعور عباس إلا التواء ، وانكمش فى نفسه يأكلها بأساً
وندماً .. فخير ما يفعله معالج الأعصاب ، أن يؤمن بقول المريض
لا حيلة ، بل اعتقاداً .
التفت إليه حسنى وهو يتسم :

« ومن اللى فى الدنيا دى كلها مشول ؟ »

وسكت فجأة ، كأن بدأ وضعت على فمه . جملة بتصيدها

ليستخدمها وهو بعيد عنها ، فلما خلقها لسانه ركبته فهوئى تحت
ثقلها . . كصدمة ممثل ببغاء عند ما يستفيق على أن دوره
يلبسه . .

عادت الحياة لوجه عباس وإقتررب إلى حافة فراشه ا
« طب قول لى أعمل إيه ؟ أحكى لهم فى التحقيق ع الحكاية ؟
ولا أسكت ؟ »

- أحسن شىء ، تكفى ع الخبر ما جور ..
ترك عباس فراشه ، وسحب من تحت سريره حقيبة اسندارت
أركانها ، ومد يده يزيج أكواماً من تياب مبعثرة ، ثم أخرج
من تحتها رزمة رماها على المائدة : « آدى الجوابات كلها .. أحسن
شىء تاخذهم أنت .. أنا مش قادر أقطعهم .. ويمكن يلاقوها
عندى .. »

جمعها حسنى بين يديه .. رزمة نحيقة من ورق رخيص ...
وساد فى الغرفة صمت ، جفون حسنى لا تستقر ، وانتبه الرجلان
على صوت جرس الكنيسة الصغيرة يلقى إشعاراً بموت .. يكاد ينطق ،
فقد عبر النحاس فى بعض الأحيان عن منتهى حزن الإنسان وأله ..

قصة في سجن

قصة في سجن

أزال الواجب المتكرر شعور الشاويش وهو يزج بالمقبوض عليهم إلى غرفة السجن . ولكنه مع هذا الرجل متضجر ، ملتوى القم ، قاسى القبضه ، يتلذذ بشتمه وضربه بالكف على قفاه .. لا لأن عينيه تقع على ساقين غشاها القشف ، أو لأن أنفه زكمه رائحة كريهة تنبعث من جلباب أزرق قذر ، مرقع في نواح عديدة باللون الداكنة — فهذه أشياء اعتادها من الفلاحين الذين يمرون عليه — بل لأنه منذ علم أن المتهم أحد جماعة الغجر الذين تطاردهم النقطة ، وهو يرمقه بعين كارهة . لم تكن نظرة رجل إلى رجل ، بل استعراض نوع راق لفصيلة منحطة . لا تقع يده على كتفه إلا تملكه تأفف قريب من الغثيان ..

الغجر ! هل هم من بنى آدم ؟

دخل الفجرى غرفة السجن وعلى فمه ابتسامة يعبها الارتباك فهى باردة سخيفة ، زادت بلاهة وطولا عندما وقع نظره على شاب جالس فى ركن ، فرآه يتنسم أيضا .. أشاح عنه بوجهه وقبع فى ركن آخر ، وعمد إلى التفكير فى نفسه ليتسلى .. لم يطل بجموده .. وعاد بعد قليل يختلس من الشاب نظرات سريعة أنعشت فيه شيئا فشيئا شهوة التحدث . فتقدم للشاب يسأله عن اسمه وبلده وتهتمته ، وتشعب الحديث . وجاء اسم مجرم شهير ، فذكر أنه يعرفه ، بل بينها نسب بعيد . فسأله الشاب :

— « أنت بلدياته ؟ »

— أبوه .. أنا وهوا فى شيخا واحدة .

— أنا سامع من العسكري يقول لك يا فجرى .. إيه اللى ملك

على الفجر امال ، إذا كنت فلاح ؟ »

وزادت الضجة فى حوش النقطة ، وسمع صوت البنادق توضع فى « السلاحليك » ، وأحذية العساكر ترن هنا وهناك . وجاءت « داوزية » من ثلاثة خفراء ، وجلسوا يتحدثون بجانب السجن ، ووصلتهما كلماتهم واضحة ، وضحكاتهم كلها . اقترب الفجرى من الشاب حتى جلس بجانبه .. لم يختل بفلاح منذ مدة طويلة . وفى وحشة السجن ، ووسط الضجة غير المألوفة ، شب فى قلبه عطف وحنان لزميله . وقد يكون من أثر هذه الظروف كلها أنه

بدأ يتكلم غير محتد ولا مراوغ . لم يكن يقص حكايته ، بل كان يعيش ماضيه من جديد .

« كنت مستأجر من أخو العمدة ١٤ قيراط ، وكان عندى كام غنماية أطلقهم فى الغيط وقت الربيع .. لما جه النيل بقيت من غير شغل . فصاحب الطين قال لى : يا عليوى ما ترحش وانت بطال بالغنم بتوعى لغاية المنيا ، توصلهم لواحد تاجر هناك ، معرفة ولك على ياعم إنى أبسطك خالص . قلت له : الطريق واعر على . قال لى : أنت واعى فى الغنم وأنا مختارك ، أنت رجالى، الطريق الى انت خايف منه سهل . خليك مع الإبراهيمية مبحر مبحر تلق نفسك حدا المنيا . وراح الراجل اشتراى سكين كويسة وادانى حجارة ، وسلم لى ٦٥ رأس . فخرجت بيهم من البلد والميه فى الحوض علو قدم .. وفصلت سايق على جسر الإبراهيمية والغنم قدامى .. ! »

... وليس الخروف - رغم أنه حيوان غير نفور - بسهولة القيادة . فخطوته بطيئة ، إن لم تجد حثاً مستمراً وقفت . وأفراده المتفرقة لا تجمعها سوى عصا متيقظة . وكان عليوى تارة (يخلق) على السيارات المتتابة و (يحجز) الغنم بنبوته الطويل ، وتارة يتزل فى بعض الغيطان وراء كبش شارد وقد يلبث النهار كله لا ينطق إلا بشين يمطها ويصفر بها. ونبوته الطويل ينقر ظهور الغنم نقرات قوية تضمها فى قطيع واحد يسير ، فتثير أرجله القصيرة الدقيقة سحباً من التراب . تتوالى نداءاته (ماء ماء .) بعضها جاف

قصير ، وبعضها يكاد يتكلم . وتسمع فيه استغاثة لاشك فيها .
 منها الأجهش الغليظ يخرج من حلق أيبسته السنين ، وبعضها كذبذبة
 وتر رفيع ، تبعها أجهال صغيرة لم يتبين لها بعد ظهر من بطن .
 كل سيرها وثبات جانبية ، وتناطح وهمى . يتطاير منها النشاط والمرح
 فقطيع الغنم - هو الآخر - يحمل بين طياته السلسلة التى تربط
 الحياة بالموت !

وخشى عليوى على حمل صغير أن يضل ، فرفعه من ساقه ،
 فتعالت مأماته وتكررت . وسار به يشق لنفسه طريقاً وسط الغنم ،
 ويضع يده هنا وهناك ، فتقع على موج من الصوف قد ألجته الشمس ،
 وذاب فى عرقه تراب كثير ، فهو متلاصق ساخن تحته أجسام
 محسومة صابرة على ألمها . حتى وصل إلى الحمار ، وفتح كيساً ووضع
 حمله . وكان يتبعه فى سيره ويشق الطريق بمجهود أشد من مجهوده
 وإرادة تكاد تنطق أن لن يثنى عن عزمها شئ . نعجة هزيلة ،
 لها عن كل مأمأة جواب ، فيه نداء حنون تحنى تحته ولع الأم وجزعها .
 ولم يكن مظهر عليوى ينبئ أنه يستطيع تحمل عبء القطيع ، فهو
 فى لا يزال فى ميعة الصبا ، قد لا تلحظ العين أدلة وراثته الفرعونية .
 من قامة مديدة ، وصدر عريض ، إلا أنها لا تخطئ نحافته الواضحة .
 فليس هناك تناسب بين قدميه المفرطحين وساقيه الرفيعتين . تحت
 ترقوته هبوط غائر ، قد يكون من الجوع ، تقيم عليه عظمتان
 بارزتان ينتهى عندهما شعر صدره المكشوف . وجهه من جلد وعضل

مشدود منها جرى لا يهتز فيه لحم . وإن حرك فكه ، تكسر سطح صدغه فجوات وكرات ، ودرغم هذا كان لا يفتر عن الحركة ، تجدد نشاطه قوة خفية تسيل في الوادي ، ولا تقل عن النيل جرياناً .. لم يفن صم كالهرم . ولا قبرتها آلاف السنين .

كان عليوى يقطع المسافات ، ولا يبقى في ذهنه من الطريق سوى أسماء القرى أو قباب صغيرة بيض لبعض الأولياء ، منهم من يعلو الجسر ليدفن البلد حوله موتاه ، ومنهم من يهبط للحوض لينعم الزرع ببركته . فعليوى - كفلاح . ولأنه يجتاز الطريق لأول مرة ، قليل الصلة بالأماكن التي يمر عليها ، لا يلفته إليها سوى مصلحة شخصية . فلم يؤثر عليه بشيء جسر الإبراهيمية ، وهو يبدو تحت تأثير شمس الصعيد المتوقدة في منظر كرويه تظلمه سحابة من التراب المنعقد ، يمتد أمامه شريط ضخم من التراب المكلس ، مشرذم الخواقي .. يتوالى هبوطه وارتفاعه ، ويتدسطحه غير المستوى بين الضيق والسعة . يزيده قبحاً أنه كثير الارتفاع ، فلا تبدو من الأشجار المغروسة عند سطح الماء سوى فروع قصيرة تحجب المنظر ، ويستطيع السائر أن يلمسها بيده . من لعلوى بمن يخبره أن ليس كل ارتفاع الجسر من التراب . ففي أحشائه أيضاً هياكل كثيرة من عظام الفلاحين . وقد يكون فيهم بعض أجداده - الذين فتحوا التربة بطول أربع مديريات بمعاولهم البسيطة . وربما بأظفارهم أيضاً ! ! وكان يموت الفلاح فينال التراب عليه ، كما هو عقطفه ومعو له ، وجلبابه الأزرق الوحيد .. أكل الجسر أجسادهم ، ومحا لحومهم . وما على جلودهم من أثر الكراييج .

« ... فى رابع يوم بعد أذان العصر بشوية ، حصلت نزالى جانوب
وكننت ناوى أمشى طوالى وأبات بالغنم فى صنبو ، لكن ما عرفشى
ليه اللى خلانى أوقف الغنم قدام البلد دى ، إن قلت كنت تعبان
أكذب .. يمكن علشان لقيت على الجسر و ابور طحين خربان .. »
فقاطعه الشاب فى لهجة أقرب للهزؤ ، أو إنصات الرجل لحديث
طفل .

« ولا قسمتك جات كده .. »

وكان الشاب لا يزال يبتسم . لم ترتفع عينه عن عليوى تراقب
فيه منظراً مسلياً .. فمذ شعر أن عليوى يؤاخيه . وهو يحتقره وكلما
قاطع الحديث بتهكماته ، وكثيراً ما فعل ، اهتز جسمه سرورا ..

« ... » ربنا عالم .. أنا ما صدقت لقيت للوابور سور كبير ،
رحت صافف الغنم جنبه وقلت : الليلة دى تنتهى بالنوم ، ولا حدش
يهرب منك وتفضل تجرى وراه .. واستكنيت .. أدنت العشا ، جيت
جنب الغنم وقلعت جلابيتى وحطيت راسى على دراعى ونمت .. لسه
عينى ما دخلتش فى النوم إلا ولقيت جماعة بجايين على من ناحية البلد
وسطهم حمارين ، وقدامهم شوية معيز ، لما حصلونى لقيتهم جماعة عجر
قلت أعوذ بالله من دا حظ يمكن ياواد يفوتوا طوالى .. وقمت ركننت
نفسى أشوف إيه اللى ح يحصل .. جم حداى ووقفوا .. وشويه لقيتهم
فارشين حوالى .. »

عند رجلا إلى الحمير فأنزلوا منها أستاذاً رقيقة . أمالوا الواحد على الآخر ، فإذا أمام عليوى خيمتان صغيرتان .. ودقوا أوتاداً ربعلوا فيها معيهم ، وأخرجت امرأة « حلة » وجلست تفركها بالتراب ، ثم ذهبت إلى التربة . وجمع أحدهم عصياً ثلاثاً في حزمة ، ثم قردها وثبت قوائمها بالأرض ، وجاء بقدر علقه من وسطها ، وأشعل النار تحته ، ومال بوجهه ينفخ فيها وبعد قليل انتشرت رائحة الشاي ، وانتبه الغجر لحاوهم « وواحد منهم قال لي : انفضل اشر بك فنجان ويانا .. قمت رايح وقعدت » ، فسأله الشاب :

— « كان بقالك زمان ما شربتش شاي ؟ »

— « ما انت حارف الفلاح عبيط ، ما يقولش في عزومة لأ . لكن أقولك الحق إني خفت .. كل الحكايات في بلدنا عن الغجر أنهم حرامية وخطافين ، ولهم حيل ما نجيش ع البال . أنا قلت في عقل ياواد اتفرج ع الناس دول .. كانت وياهم بنت ، فضلت ثروح وتيجي قدامي ، مخدتش بالي منها إلا لما شفت الرجال مكشرين لها . ما حدش يكلمها منهم بلطف وإنسانية ، إلا كله بشخط ونظر . ساعات ترد وساعات تمشي ساكته . ما عرفتش عملت فيهم ليه لأنهم يشتموها من غير ما يسمعوها (يا مجنونو ! ح تشوفى .. ح نوريكى) . بقيت بعد كده كل ما تفوت قدامي أبص لها . .. فوجد فيها وجهاً شديداً السمرة ، يكاد يكون كامل الاستدارة ، وأنفاً دقيقاً ، على جبهتها نقطة خضراء . وعلى ذقنها وشم غص . قصيرة القامة ، معتدلة الظهر ، رأسها كثير اللففات تضيء عن عصبية قوية ..

وكانت تخفى غضبها بضغطة ظاهرة على شفرتها زادتها طولا وضمورا
ولما جاءت تناول الأفداح ، فاحت له منها رائحة غريبة عن أنفه ..
خليط من عرق وقذارة ، وعطر فيه قرنفل وشند (١) ولم يشعر عليوى
إلا وهو منطلق في الحديث ..

« فضلنا نتكلم .. وفضلوا يسألوني عن الغنم : رايح بهم فين؟ ومعاى
كام ؟ أنا خمت يكونوا بيسهوني عن حاجة والا ملعوب . قلت
قوم حوش عن غنمك . رجعت مطرعى مقدرتش أيام .. يادوبك
عيني بعد نص الليل غفلت ، إلا وصحيت على نبح الكلب . وأبص ألاقى
غنمى متفركة فدام ثلاث عساكر ، خيولهم عنيها في الظلام زى الشرر
لسه فاكرهم لدلوقى .. بقيت مخبول أجرى وأقع .. كل ما التفت
ناحية العجر ألاقى العسكر نازلة في الخيام هد ، والنار انطفت وبقت
دخان . وسعت الشنمة نازلة فيهم : « يا حرامية .. يا خطافن باولاد
الكلب .. » دراعاتهم تهتر فوق رؤوسهم ، يزعموا : « فى عرضك
ياسعادة الشاويش .. » ولا كن ولا فائدة .. لموهم كلهم فى
سلسلة وأنا فضلت أجمع فى الغنم ، اغاية ما حملت ربنا واناميت عليهم
رجعت مطرعى ، جيت أشيل الجلابية وأنام ، ما أبص إلا والاقى البنث
الخجرية مكومة نفسها ولا زقة فى الحيطه أقولك الحق ارتعشت من الخضة ،
ياخبر اسود اإيه التهمة اللى جبالى دى ؟ !

— بنت إنب هنا ؟ إيش جوابك ؟ بتعملى إيه ؟

(١) نبات عطرى يستعمل للبخور .

شاورت لى بصباعها .. لغاية ما بعلت العساكر خالص اترمت
على وقالت لى :

أنا فى عرضك .. دول كانوا عاوزين يمونونى .. فاكرين
أنا الى دليت عليهم فى سرقة القوصية ، حبسوننا كلنا . وأول ما طلعم
سرقوا تانى .. فى عرضك خدنى وياك .. مطرح ما تروح أروح ..
بس أبعدعن الناس دول ... »

ومدت العجيرة ذراعها وتعلقت برقبته لم تكن ترتعش ، ولا كانت
سرعة التنفس ، وكل ما تغير فيها أن زالت ضمة شفيتها فباننا متضخمتين
وانفرجتا عن سنين كبيرين ، وتركت عينها مسبلتين ، لعله التعب ،
أو كأن هذه أول تجربة صادفها عليوى ، وربما أيضا لأنه لم يشم من
قبل رائحة الشند والقرنفل عن قرب .

سواء كان هذا أو ذاك ، أحس عليوى بقواه تلوب بين يديها ،
وتراخت ذراعه بجانبه .. وعادت لذهنه صورة هذه المرأة وهى تمر
أمامه عندما كان يشرب مع رفقاءها الشاى ، وتذكر لفتات رأسها .
ولم يكن يدرى وإن كان قد أدرك الآن — أن لهذه اللفات جاذبية
عجيبة وسحر قوى .. وطال صمته ، يعلله ضميره بأنه من آثار
تربيته التى علمته منذ الصغر أن يهرب الفجر ويخشاها . ولكنه لم يرد
ذراعى المرأة ، بل أحس بعد قليل أن ما انحل من أعصابه عاد ينفر
فى جبهته ، ويجف فى حلقه ، ويرتعش فى قلبه . واجتمع هذا وذاك على
ملء عروقه بدم يغلى ويطن فى أذنيه .. وإذا بذراعيه على ذراعها
يتبادلان ضممتها ..

وزاده التهاباً أنها ابتدأت تقترب منه شيئاً فشيئاً .. وكان يدفعها نحوه شعور هو خليط من الفرح والعناد .. وربما لم يكن شوقها للرجل ، بل لتذوقها لذة حريرتها في ليلتها الأولى . ثم ما إن بادها الرجل ضممتها ، حتى انطلقت من مكمئها رغبة قوية طالما كبئت فكانت في انفكاكها هوجاء .. ولكنها حريصة على نفسها إلا تفنى سريعاً .. فهي تضغط على حذتها وتغطى عنفها بستار من الاتقاد واتزان الخطورة .. وجعلت كل همها أن تعطى للرجل ما لم ينله من قبل وأن تأخذ منه أكبر ما تستطيع .

وكانت وفمه على فمها تلمع في نظرتها ، رغم الظلام ، صورة الانتصار . ولو كان للغريزة جسد وأشرفت عليها ، لزت رأسها رضا وافتخاراً ، ولدافعت عن نفسها بأنها لم تكن لترضى من أغلب الناس بالعبارة الملتصمة المتسريلة في الحياء والخفى ، إلا لأنها تنقل لأفراد قلائل منهم ، وفي أوقات متفرقة ، كامل قوتها ، فيهبونها أرواحهم ويدعونها أن تحل بهم من غير شريك ..

ولم تهل القبلة ، لأن المرأة استيقظت وتنهت لموقفها فقامت وسحبت الرجل من يده ، ودخلت من ثغرة في سور الواوور ، وشعلها الظلام .. وكان على الكلب هذه الليلة أن يحرس مع الغنم سيده ..

... « قصره بيتت معائى الليلة دى .. وقلت لها : يا بنت الحلال أنا أخاف الله .. وأحب حكم الشرع .. قالت لى أنا وهبتك نفسى .. قلت لها : وأنا قبات ، وإذا سمع عنى حد أقول : فلاحين كثير

بيجوزوا في البنادر بالوهبة ..

قال له صاحبه :

« — لا كن مش ع الحسر .. ومش مع العجر — ساعتها ما كنتش داري بنفسى » .

... لا يدرى كيف نام وهو يسوق القطيع ، فطلع عليه النهار وهو من المسرقين أمام قدر لا تفرق عصاه في دفعها للأحياء بين بنى آدم والغنم .. ولكنه رغم هذا يشعر بأن هذه المرأة غمرته بلذة جديدة عليه ، فانقاد لها كأنه متعب ، يجحد بعد جهد فراشاً وثيراً .. وترك عليوى نفسه ترتاح وتستند إليها .. لا يهمه وهو في هذا النعاس المعسول — أى قيد غلته به .. ما دام تيار الحيوية الذى استيقظ فيه — ولا يستطيع بعد ذلك كتمانها — لن يجحد في غيرها مصعباً يتدفق فيه ويزخر .. ونسى عليوى من أيامه ما مضى ، وقصر همه على الساعة التى هو فيها .. وفي الصباح كان يسير وراء القطيع وهو لا يزال مدهوشاً ..

... « مشينا تانى في الفجر وأنا مدروخ .. حصلنا ديروط .. لا لا ... نسيت. بعد ما مشينا شوية بصيت على الكلب ما لقيتش .. رجعت أدور عليه ، لقيته جنب شجرة بيطالع في الروح ... » راقداً بمؤخره على الأرض ، رافعاً راسه على مقدمين مرتعشتين ، يهتر جسمه متشنجاً وخذلق الكلب في صاحبه ، ولمعت في عينه لحظة بارقة أمل ، ثم أطفأها سريعاً حزن عميق صامت .. لم ير من قبل عيوناً تبكى مثل عيني الكلب الحامدين ، وكانت تكلمه وتقول : « هل هذه آخر مرة

تراني ؟ » وفتح فمه .. ولكن الموت كان قد انتهى ، ووضع يده على هذا الفم فلا يستطيع نباحاً .. وانحدرت بدل الصرخة سيول من لعاب لزج ، تنبىء عما في جوف الحيوان من غليان وألم لا يعلمه أحد .. لم يفهم عليوى سبب الحادث .. لعل أحداً من الناس ضربه .. وكم من فلاح يضرب الكلب الغريب بقسوة ، أو لعل صبيّاً قلّفه بحجر هذه الشهوة التي تتمثل بها أول فكرة إجرامية في رأس الطفل .. ومد يده يتحسس ظهر الكلب فإذا هو سليم .. وشعر بالغجربة بجانبه .

« جئت قعلت جنبى تنفرج . بصيت لها قالت لى : « سموه .. كانوا عاوزين يسرقوا غنماتك وانت نايم .. جم أجلمهم قصير ، وراحم فى داهية . ما تزعلش ، بكره تلاقى غيره ، وعلشان خاطر ك أنا جبت لك منهم معزتين هما دول اللى فى الوسط . قلتلها : بتوعك المعزتين ؟ قالت لى : لا ، بتوعاتهم .. » فقاطعه الشاب من جديد .
- « أهى غنيمة وجاتلك بلاش .

- لا والله .. مارضيئش أبداً آخدكم لكن أعمل إيه .. »

إن استطاع كلبه بين يدي الموت أن ينبج ، فليتكلم هو بين يدي التي سلبته عقله .. ولم يكن شيء أنطق بالاختلاف بين الطبيعتين ، من الالبسامة الخفيفة التي تمشع على فم الغجربة ، تقابلها تقطيعية ظاهرة على جبين الفلاح .. وخفت رعدة الكلب شيئاً فشيئاً حتى تلاشت حركته ، وتجراً الذباب على فمه وعينه .. وقام عليوى ليعود إلى قطيعه ، وقد تنازعت حصرة على كلبه يتركه وراءه ، ووجل من

المعزتين تسيران أمامه ، ويتمثل فيهما أول جرم ارتكبه في حياته
وهو الذى عاش طول عمره يهرب النقطة، ويرتعش أمام العمدة ، يبيى
العساكر باحترام ..

« من أول يوم لقيت الغجربة شاطرة .. حوشت اللبن اللى تحليه
وباعته ، وكنت الأول أحتار فيه ، وفطمت لى كام حمل ! وخبطت
على النعاج كل واحدة كيس . نسيت هم المعزتين وقلت لنفسى
بكره ياواد ترجع لبلدك وتربى غنمك ، وإن كان معاك واحدة شاطرة
زى دى ، ليه ما تقبلش غنم الناس لما تودعها عنك وتسرح بيهم !
بكره رزقك ياواد يتسع .. وربك كريم .

« بعد كام يوم حصلت ملوى ، ولقيت فى مدخل البلد أرض بور
رحت سايب فيها الغنم ، وجيت عاجسر قبالة قهوة وقعدت ..
البنث غابت تحت مع الغنم .. كانت ليلة من أولها مقندلة زى الزفت ..
ما اعرفش جبرى للبنث فيها إيه . انقلبت على فى الصبح قلبه واحدة .. »
نزلت الغجربة تجول بين النعاج بخطوة بطيئة ، لا شىء يدعوها
للبقاء مع القطيع . ولكن لا شىء يدعوها أيضاً للرجوع إلى عليوى .
بدأت تمل معبشتها الحديدية الواضحة تسير فى طريق معلوم وعادت
نحن لتجوالها القديم . كل لذتها أن تطارد من بلد إلى بلد ، ولا تزيد
صلتها بمكان أكثر من ليلة . زالت الفورة ، ولم يبق من عليوى سوى
رجل هادىء تستطيع أن تثق بطيبته . ولكنها مع ذلك تندم على حياة
نصفها محبة ونصفها عداء . فالعجر أنانيون لا يقبلون الغريب بينهم .

وقد ظلت تخضع الرجل منهم ، لا عن حب بل عن اضطرار ، وكانت تجد لذتها في الصراع الدائم بين شدة مراسها وحقد أضغانها .
وأى لذة أكبر من أنها لا تخضع إلا بعد أن يعلو إلى فمها فيكاد يغرقها تيار ينسبها حقدها . على عظمه ١٢ وكلما وافق الاسترضاء نقطة الانكسار تمتعت النفس بأقصى حدود النشوة ، أما الآن فهي تخضع ، سواء أكان التيار إلى قدمها أم إلى ركبته . لا تعرف لذة الشيع ، لأنها حرمت لذة الجوع . لم تكن تبغض عليوى ، ولكنها كانت تمنى لو كان من العجر .

قطع تفكير العجورية نور مصباح يضىء على الجسر حيث يجلس عليوى ، وبلدت لها قهوة في وسطها - وتحت المصباح - دكة خشب عليها رجل بيده ربابة ينشد .. فنسيت أفكارها وجاءت تستمع لقصة (حبس مرعى ويحيى ويونس ، عند الزناتى فى تونس ، ورجوع الأمير أبوزيد إلى الأطلال .. وتوالت صرخات الرجل ، تبدأ عندها مهمة الحالسين ، وكلهم أصاخ بأذنه للقصة وللأشعار وكلما تقدم الليل ضاقت أنفاس المصباح ، يزيد لها اختناقاً حلقة كثيفة من ناموس كالتراب انعقدت حوله رغم دخانه المتصاعد . ولف الكون سكون شامل ، وكانت السماء فى ظلامها كأنها جناح وطواط حط على العالم . له بين الحين والآخر رعشة خفيفة .. هى سبب هزة هذه النجوم القليلة التى ترتجف ثم تثبت . ولم يستطع المصباح بأزيزه ، ولا المنشد بربابته ، أن يبدد بعض ما فى الكون من حزن جاثم .. هل الليل جنة

النهار ، فيكون هذا الحزن أنشودة الموت !! أم العالم في أسي ،
لأنه يشعر أنه يفنى شيئاً فشيئاً !! أو ربما كان من تأثير انعكاس
ما يجول في هذا الفضاء من آلاف الأرواح الشرقية التي خلقها الله
حزينة موجعة القلب !! وربما كانت هذه السماء ذاتها إذا ظلمت الشمال.
عنوان البهجة وامتلاء النفس بالرضا والجلد ، وأصبحت هزة
النجوم رقصاً !!!

وثقل هذا الجو على الربابة . فهي تن بصوت متشابه . ووقف
العالم كله في ناحية ، والربابة في ناحية أخرى ، ودار بينهما حديث ،
وأفضى كل منهما للآخر بأسراره . وبلغ تأثر السامعين بالقصة ،
أن غاب المنشد عن نظرهم وتجسم لهم أبو زيد جالساً على الدكة
يصرخ فيهم صرخاته الحربية . واختلطت الأزممة في أذهانهم ،
لا يدرون أهو الذي بعث ليقص عليهم وقائعه ، أم هم الذين نقلتهم
يد سحرية إلى عصره السحيق !! واختار الشاعر قصيدة يعام من
تجاربه أنها تؤثر في السامعين . واختتم بها ليلته ، وكان آخر
ما تغنى به :

على ما جرى يا ويح قلبي لما جرى واليهن قيدي بسة قيود ا
مما جرى لي من هموم تكيدني وقت إيش يا ذاك الزمان تعود؟
نطق لسان الحال عن الدهر قال لي : زمان مضى ما عاد قط يعود ا
يا عين ا لبك على الزمان اللي مضى وأجرك على الله الواحد المعبود ا

هل كان يعلم الشاعر المجهول وهو يصف آلام أبطاله أن شعره
سيقابلها على الجسر فتتلقاه كضربة السكين ؟ ربما كان يعلم هذا
وإلا كيف تكلم عما في ضميرها كأنه يعرفها من قبل ، وعاشرها
واستمع لشكواها مراراً ١١ ودمعت عينها - ودموعها غزيرة
على كره منها . ثم استيقظت حداثها وشدة مراسها ، وكبت همومها ،
وقامت تنام وقد اعتزمت أن تنفذ الفكرة التي تشاغلها في الأيام
الأخيرة .

» صحيت من النوم لقيتها ماشية ع الجسر وجلابيتها تحت باطها .
كانت ماشية بشويش ، لكن فهمت طواى لإنها هاربة منى . . رحت
جارى وراها ، حصلتها ومسكتها من دراعها :

- رايحة فين ؟

- ماشية . .

- ماشية فين ؟

- مغربة للجبل . يمكن أتلّم على أهلى هناك . .

- لوحلك ؟

- أيوه ، خلينى فى سكتى وخليك فى سكتك .

- يابنت الحلال ، أنا قلتلك إن الغنم مش بتوعى ، صاحبهم

فى الدنيا ، وبيننا وبينها دلوقتى هركة كعب ، وأنا راجع وياك طواى
للبلد .

راحت قابلالى طوالى :

- تغور بلدك باللى فيها .

حقد الشاب فى عليوى كأنه ينتظر منه غصبة الفلاح يقبل كل
شئ . ولا تسب عشيرته ، ولكن عليوى فى الوقت الذى يتحدث عنه ،
كان قد فصله عن أهله وعشيرته حاجز رقيق . لم تثر الإهانة إحساسه ،
فبلعها . . واستمر عليوى فى حديثه :

- و قلت لها :

- بلاش نروح للبلد . طب نروح مطرح ماتحجى .

- تعال وياى .

- والغم ؟

- هاتهم معاك .

- مش بتوعى !

راحت لاوية وشها زى اللى زعلت من الكلمة دى . ومشت

تانى ، وقربت تغيب عنى .. كل دا والشيطان بيلعب فى عقلى .

وقف عليوى وكل عرف فيه نابض متيقظ ، أسكرته حديثه
فطاحت رأسه ، يقع نظره مرة على المرأة ومرة على القطيع ،
ووقف الشيطان أمامه ممسكاً بالميزان يبتسم له .. ثم هوت كفة
المرأة ..

.. « ورحت صارخ فيها :

- هوى .. هوى .. أنا جى .

وجريت للغنم ، حاودتهم من ع الحسرس لصليبية مغربة للجبل .
ومشيننا مش عامل للدنيا حساب .. وما نيش عارف أخرتى ح تكون
ليه ..

فى الليلة دى شفت منها حاجة عجيبية .. كنا فابتين على عزبة ،
لقينا فرخة فى الطريق عما تلقط .. راحت البنت طلعت من جيها
خيظ طويل مربوط فى آخره حباية درة ، ورمها قدام الفرخة ،
راحت لقطاها .. ووقفت فى زورها .. قعدت تحك منقارها فى
الأرض ، عايزة تصرخ مش طايقه ، والبنت سحبها شوية شوية
وحاطتها تحت باطها . وتوما بعدنا عن البلد دبحتها .. حصلنا الجبل ...»
- « استنى .. مين اللى أكل الفرخة ؟

- أكلناها سوا .

- واشمعنا ما عملتش البنت الحيلة دى قبل كده ؟

- أنا عارف .. دى كانت نازلالى بالسسم .. وأنا بقول ياسايل

سترك ..

- أيوه .. اللى يسرق خمسة وستين رأس يزور فى فرخة !

فصت عليوى وارثقت له تهديات طويلة .. وكأن القمر
قد غاب ، ووصل إلى غرفة السجن المنفردة فى وسط حوش النقطة
بصيص من مصباح معلق على بعد ، وتوالت دقات أرجل الخيل
قوية على الأسفلت ، ونهق حمار بجوارهم . ثم هداأ الجو من جديد ،
وعاد عليوى لقصته ، منكسر القلب ، قد زال حنانه لزميله ، فكان

منكمشا في نفسه يقتضب حوائده .. لم يكن يحيا ماضيه ، بل كان
يتذكر بجهد بعض ما جرى له ...

.. « قابلنا في الجبل جماعتها .. واختلت بالكبير بتاعهم شوية ..
الله أعلم اتكلموا على ، وشفتها بتشاور على الغنم ، والراجل بيص
وياها زى اللى بيعدهم ... مشيت وياهم .. بعد يومين ولا ثلاثة ،
لقيت الغنم نقصت راس .. الحق دمي فار .. مسكت البنت وقتلتها :
الى عاوز يفقد حياته يقرب للغنم .. »

قالت لى : « إحنا دلوقت غجر مع بعض .. كل حاجتنا
ويا بعض . »

قلت لها : « غجر مش غجر أنا ما افهمش الكلام دا .. »
راحت لاوية بوزها على وقعدت ما تكلمنيش . جيت لها بعد يومين
وقتلها : يابنت الحلال أنا بعث أهلى وشرفى عاشانك .. مالت لى
تاني ، لكنها كانت بتطرخم على .. وكل ساعة تقول لى : ما تخافش
على غنمك الغجر ما يسرقوش من بعض .. برضه ألاقى الغنم كل
لما تقرب على سوق تنقص راس ولا راسين .. كدبت على .. «
- « هى ما كدبتش عليك .. أنت عامل نفسك غجرى ، وهما
مش عاملينك .. علشان كده يسرقوا منك .. دانت نهيبة لهم ..
نهيبة حلال .. »

« - صفصفت الغنم على عشرة .. على خمسة .. قلت ديهده
ياواد ؟ ح تطلع بلبوص والا لايه ؟ وفى ليلة استغفلتهم وقمت قبل ،
دماء وطن - ٩٧

الفجر ، ورحت جارد الى فاضل ، ومشيت للسوق بعثهم وانفضيت .

— « استغفلتهم ؟ هما الغنم مش بتوعك ؟ »

لم يجب عليوى واستمر فى قصته :

« .. من قيمة جمعة أخذونى هيله بيله وسرقوا .. وسرقنا سوا ..

كبس قطن من غيط .. امبارح بالليل مسكونا .. » .

وكان لابد أن يتلوق عليوى بعض ما يلقاه الفجر من الإهانات والمطاردة . وجاءت الليلة التى خبر فيها كيف تهجم الخيل ، ويقع السوط ، ويوضع القيد فى اليدين .. ولكن صحبة الفجر جعلته يستقبل الشتم والقيد والكر باج مطمئناً .. منذ سنة شاهد ماجرى للفجر .. فكان جزعه — كمتفرج — أكثر منه اليوم ، وهو مضروب يسير مكبلاً بالحديد للنقطة — سنة مرت عليه لم تفن من عمره ، قدر ما هدمت من أخلاقه وعاداته .. كان فلاحاً يهيمه النبل والعمدة والنقطة وحدود أرضه يقيسها بالشبر وبالأصبع ، أما الآن فهو غجرى لا يهيمه سوى اليوم الذى هو فيه .. الدنيا كلها أمامه لاحدود لها .. إن استطاع أن ينال منها شيئاً فليخطف .. وهو سعيد .

وسأله الشاب من جديد :

— « والعساكر جابتها وياك ؟ »

— البنت ؟ لا يرزعه هربت .

- على الله ماتلاقيش الدور دا واحد تانى تجيبه الأرض . .
- لا . . حلالقيه منين ؟ أنا تو ما اطلع أخرج أدور عليها .
- لم يسخر به الشاب هذه المرة بل ثئاب وتمطى ، ثم رقد على
- الأرض . وقبل أن ينام أنشد بصوت منخفض ، دون أن يتغنى ،
- هذا الموال :
- تقدر نسيب حبيبتك ؟ وإن كانت ياعين . . ساءتك
- ولا جابت المعروف الكاس دوتها . . وسقتك
- ولا رفعت عليك عصاية وقدامها . . ياميت ندامة ساءتك
- لى لى يا وعدى . . .

أبو فودة

ابو فودة

يوم وقفة العيد خرجت من (المركز) «شحنة» المساجين الذين قضوا ثلاثة أرباع مدتهم ، فضايق الشارع بحلقات الأهل والأحباب تتخاطف نصيبها وتلتف به . كادت الزحمة تزول ، وجاسر هنيدي لا يزال مكانه . ليس في المساجين غيره من بنى شقير . لم يكن في انتظاره أحد . فلم يبق له من الأقارب سوى ابن خاله اسماعيل ، وآخر مرة رآه كانت قبل خمس سنوات عندما زاره في طره . لم يكن مبهتساً ولا حزيناً ، ولا خطر له أن يتساءل هل إسماعيل حي أم ميت ؟ فهو مشغول بمراقبة ركاب الحمير والسافرين ، يلاحقهم بنظرة خالية من الفهم وإن كانت حية ، يشد الدهول فمه إلى أذنيه ، ولكن ابتسامته لم تولد بعد .

بعد برهة سار يقصد البندر . لم يصل وابور الطرزي حتى وقف من جديد يراقب جمعاً أغلبه نساء حافيات وسطهن غازية ترقص

حول قلة . جاءت فوقها تغطيها بملابسها وقعدت . ثم قامت ،
فإذا القلة قد اختفت معها ... على وجوه المتفرجات سعادة صادقة
وإعجاب : كيف استطاعت ؟ ويسأل : المتفرجون : أين
وضعتها ؟ والواقصة لا تزال على شخلةتها وتقصبها . تملأ الجو برنين
الصباحات .

وخرج من الوابور عدة نساء قد علق الطحين بوجوههن . على
رؤوسهن قفف . كبيرة لا يحملها إلا مثل رقابهن الغليظة ، فقابلهن
المنتظرات بزغاريد عالية .

في هذه اللحظة لمست كتفه امرأة . لم ترفع نظرها عنه منذ أن وقف
بجانها ، ولكنه في شيء من الإلهام بادرها :
- « الطحين ده لفرح من بنى شقير ؟
- أبوه .. انت مش ابن المرحوم مبارك حاج جاسر ؟
- أهو أنا .. النهاردة بس خرجت » .

احتاط الشقراوية ببلدياتهم ، وتلفت وجه لوجه ، وتنقل همس من فم
لأذن ، فإذا من الرقع المتعددة ، تنشر من جديد في ثوب خاق ،
حادثته القديمة .

نجاسر عامل في محجر أبو فودة ، أمل أبيه الرجل الطيب الشيخ
مبارك . ولكن نزع الشباب يقوده في معظم الليالي لنفلوط ، يصرف
وهو مخمور كل مكسبه على حميدة : فتاة تقودها للفحش المستر

أهمها العرجاء . هو في الجبل شرس ، شكس الطباع ، يعجب بقوته
 ويزهى بها على زملائه . كلما اجتمع العمال ، ولا يعدلون بطبيعتهم
 عن الدائرة والقرصاء - كان هو بدون مجهود واسطهم ، وقامته
 تعلوهم . لهم جلسة يومية عند سفح الحجر ينتظرون المعدية . كان
 الحجر في هدوء لا يشعر بوجوده ولذته إلا من خبر ضجته . وجاسر
 يحكى لهم شيئاً يضحك ، فهو يصف لهم خناقة له مع رجلين على
 الحسر انتهت بهربها . وعن ثور هائج مسكه من مقوده وأوقفه .
 أيكون أقوى من هذا الحجر الذي يرويه أمامهم ؟ انه يراهن من شاء
 منهم أنه يرفعه من مكانه .. وقفوا حوله . ومال جاسر . وباعد رجله
 واحتضن الحجر ، يتأيل على الجبين وهو ينقل يديه ، يتفحص خصمه
 ويصل بين روح الحجر وروحه ، وانتفض نقضة كتمت نفسه ،
 فامتقع وجهه ، وبرزت عروق رقبته ... ولكنها ماتت في جسمه ،
 والحجر لم يتقلقل ، وجاسر منكئ لا يتنازل عن محاولته .

لم يطل الصمت ، قطعه صوت من بين شفتين كله احتقار
 واستهزاء ، عدل بالأنظار جميعها عن جاسر إلى متولى : شاب واقف
 في المؤخرة صغير الرأس ، أعنتق ، أذناه لاصقتان على طرفي قفاه .. وأردف :
 - « إذا كانت حميدة هي التي أخذت قوتك ، احسن تسبب

الحجر لراجل .. دا تقيل عليك .. »

أظهر التحقيق أن للقتيل علاقة بحميدة ، ولكن لم يثبت إن كان
 جاسر على علم بها . واختلف الشهود ، لا يدرون هل كان القادم في

يد جاسر ، أم خطفه من أحد الواقفين ؟ أخذ متولى الضربة وارتمى على الأرض ، له حشجة سريعة متكررة يوقفها حيناً بعد آخر ، صوته حلق يابس يشرب ماء متدفقاً ، هو سيل الدم يتزف على ستر من مجه إلى جوفه .

ولكن وحشية هذه الحادثة لم تقو على خمس عشرة سنة تفل أصلب الذكريات . وأخذ الشقراوية ، عندما نفذتها مسهم يحيطون بجاسر يهتونه . فللفلاح مبادرة من قلبه لاثنين : حاج يعود ، أو مسجون يطلق . سلسلة من مظالم لا يعلم أولها . هي التي لا تبخس قيمة الطليق عندما يعود .

وفوق ذلك . فإن منظر جاسر يدعو إلى أن ترق له قلوب بلدياته . لم يميزه الذين يعرفونه منهم إلا بصعوبة فقد تركهم شاب حليق قوى الذراعين ، وإن كان محنى الظهر قليلاً ، يمشى يهد الأرض . وأمامهم رجل في ذقن قد عفرها الشيب ، هزل وجهه ، فعرضت عظمتا خده عن عينيه . ربما تكون قامته قد اعتدلت ولكن كتفيه تقوسا .. مشيته على الأرض زحف كأنه يسحب معه ثقلاً .

وسار الموكب بأناشيدة ، وجاسر في المقدمة . قد ولدت له الالبتسامة ، فإذا هي ضحكة عريضة تبين عن أسنان غليظة . وجهه يتهلل عن بشر صادق . في نظرتة لذه تمتع ورضا لا ترى إلا في عيني طفل .

على أن أحداً من المحيطين به لم يفهمه . ليست ضحكته من عودة حربته وحذب بلدياته عليه ، بل المفارقة تملأه سروراً ها هو —

من غير أن يحنسب — يعود لبلده في زفة ! لم ينلها أحد من المسجونين
الذين سارعوا بالتفرق عنه وتركوه . بذكرهم في سره ويضحك .
فأكل طبعته ، خير فكاهة لمن تنزل عليه المائدة !

وجاسر ذكي ، مهما قالوا عن قساوة قلبه زمن حادثته وعن
وحشيته في طرة ، يصبح في مثل هذه المواقف حيواناً كاملاً الإنسانية
يرق قلبه ، وتفتح نفسه ، ويقبل على الضحكة بشغف ، ولو وجدته في
أضيق المواقف .

جىء من الجلسة بعد سماعه الحكم وأودع عربة السجن وجد بجانبه
شاباً صغير الجسم مسود الأصابع . ربما كان جزجياً أو طباعاً . سأله
الشاب :

« طلعت بكام .

خمسناشر سنه .. أشغال شاقة .

في طرة ؟

في طرة ولا أبو زعبل .. زى بعضه ..

ح تنحت الحجارة في الجبل طول النهار ؟ ياخي أبيض الله يكون

في عونك .. »

أدار الحجار وجهه للشاب ، فإذا عليه نفس التهلل والرضا واللذة
التي تنطق بها عيناه وضحكته الآن وهو يسير في رأس الموكب .

الضحكة واحدة رغم بقائه خمس عشرة سنة سجيناً . قد تكون
لعبت بجسمه ما شاءت ولكنها ، لم تمس روحه . وها هو يعود كما

كان ، شاباً نفسه متفتحة للحياة ، ولا يدرى أحد الآن بعد هذا الغياب ما مقدار جوعها رغم هزاله ، وما بن قدميه والأرض من نضال .

ويخل الموكب البلد ، ووصل الخبر إلى إسماعيل ، فجاء بذراعيه يجرى إلى ابن عمته . شاب مصفر الوجه متردد متلعثم ، أربكه وصول جاسر . وقفت زوجته تنادى الجيران تشهد منهم دستاً ، (١) وأخذ هو يجرى هنا وهناك ، حتى استلف تمر رأس سكر ، وخرج يسقى الشرابات للجيران وقد تجمعوا عليه يهنئونه هو .. في سره يقول :

— « أهى مصيبه ونزلت على » .

وهبط الغروب على البلد ، وأخذ كل يعود لداره بدوابه وأغلقت الأبواب ، وهمدت أجسام أضناها الشقاء ، ونعست جفون . ولما هدأت الضجة ، سمع في قلب البلد نواح ضعيف ونهبة .. هي أم متولى : جاءها خبر عودة جاسر فجدد منلتها .

ثغرة في جدار الخوش السماوى تصل منزل إسماعيل بريحه مسورة كان أبوه يخزن فيها حطبه ويربط جاموسته . ولما أكل الابن ماله ، بقيت مهجورة تجرى فيها الكتاكيت . لها باب من خشب الصناديق يفتح على أرض نخيل مهملة .

في ركن منها مسقف بالحريد ، نزل جاسر مؤقتاً حتى يجد عملاً ومسكناً . وفي البلد عرف ، لا يقر منزلاً يجمع رجلين وامرأة ..

(١) «أنا» اسطوالمى كبير .

فجاء إسماعيل بحزمة من البوص في قامة الرجل وسد بها الثغرة وحلوق
الخيران . ليس لهم بعد ذلك ما يشكون منه . ولكن في قلب إسماعيل
يقيناً بأنها « مصيبة ونزلت عليه » . ماذا تفعل في جاسر حزمة البوص ؟
هو منذ الصغر يتحاشاه ويتهرب منه . طبيعتها ضدان . مال جاسر
إلى الأحمر ، وعمد إسماعيل إلى الأفيون وحسن كيف (١) خشونه الأول
بجرته منذ الصغر إلى الحجر ، وأتلف الثاني ما تركه له أبوه وهاجر
من البلد . رأى جاسر في إسماعيل أنه عيبط خام . ويشكو إسماعيل لكل
من يعرفه عن شقاوة ابن عمته وأذيته لخلق الله ..

ولو كان متزوجاً من غير نرجس لكان عليه الأمر . فهي امرأة
(محرورية) يعلم الكل عنها أنها (نتاية) ، أكثر قهماً لطرق الإغواء
للرجل من فتيات البلد . يقولون أنها سبب فقره ، لأنه يجرى وراء
ذيلها ، ثم يحصلونه في الوقت نفسه عليها . في ضميره وسواس
دائم أن هذا الحسد يخفى تحته نوعاً من الاحتقار ، كأنهم يستكثرونها
عليه . إيمانهم بأنه لمحت قدمها ، هو الذي يقلل من الإشاعات التي
تصل إلى أذنيه عما تفعله ، من وراءه . وهو الآن لا يستطيع الثقة
بإخلاص زوجته ولا بعفافها ولكنه يعيش كما يعيش زوج كل
امرأة خليعة . إذا كان يهاها : تأجيل مستمر لليقين ، واستساغة دائمة
للبقاء على الشك .

وزاد من هموم إسماعيل أن جاسر يهبط عليه في وقت توقيع الحجر

(١) نوع من التبغ المخلوط بالمصل يدخن في البجوزة .

(على بياضه) (١) وغرقه في الدين لرقبته، وحرصه على «ربعين خرة» بقيان مع المش والبصل أوده.

ظل جاسر في أول الأمر بعيداً عن التفكير فيما وراء حزمة البوص، فقد انخل من ركنه منامة لا يأوى إليها إلا مع الليل في أول أيامه أخذ يتجول في البلد والغيطان، وزار متفلوط مرات متوالية. ثم ترك ذلك كله و (تزين) على دكان خليل، حيث وجد من العجائز وبعض ضيع الشباب أصدقاء يتناوبون شرب أقلاب شاي معكزة كالخبر.

في هذه القهوة سمع عن خيبة إسماعيل في زواجه من هذه البعراوية هو رجل «هايف» لا يعلم من ملاعيب زوجته شيئا ولا هم يعلمون ولكن ليست على عيونهم مثل عينيه غشاوة. ماذا تفعل في البنس يوم السوق؟ إنها تزوغ من وسط بلدياتها وتختفي من أول النهار لآخره.

أخذ جاسر - وقد ملأت هذه الأحاديث أذنيه - يسارق لرجم النظر. لها مرات قليلة تروح وتغدو في دارها. ثم رآها تسير يوم السوق وقد شلت طرف طرحتها على نصف وجهها، ولكن العين الوحيدة التي وقع نظره عليها كبيرة واسعة. متلفتة، تهوب ما حولها في لحظة، وتفهم التيارات الموجهة إليها في غمضة.

وتربص جاسر إلى أن وافقه يوم خرج فيه إسماعيل مبكراً إلى الغيط. ودخل الدار فوجدها بجانب الفرن. شفته السفلى متضخمة قد تدلت، وعيناه جشعتان :

(١) الزرع في الحقول قبل حبه.

— « صبحت بالخير يا نرجس .

— صبحك الله بالخير .. ابن عمك توبه طالع للغيط . »

الحوش سماوى يكشفه الخيران . فاتجهت نرجس إلى غرفة صغيرة منحدرية ودخلتها ، فجاء جاسر ووقف على بابها . لم ير في مبدأ الأمر شيئاً ، ثم اتضح له بعد وقت حبل عليه ملابس نسائية عديدة كلها في ألوان مبهجة ، ترينها دنتلا وشرائط وتطريز وزر كشة .

وقفت نرجس تنظر إليه . هو موقف مناجزة وقياس قوة بقوة . فهي أبعد ما تكون عن القروية الرعيدة التي لا تخلو مع رجل إلا وملائت رأسها فكرة واحدة : أنها عرضة لهجومه ، وأن الانتصار عليها لا يتوقف على إرادتها ، بل على الظروف . فلو كانت ملائمة له خيم عليها جو من التسليم والعجز ، وقد تناضل قليلا ولكنها تذهب دائماً بالخصوع ، وأغلب الأمر أنها تنسى نفسها وتشارك في النهاية فيما أكرهت عليه . فهي تعيش طول عمرها ونظرها لنفسها أنها مطلقاً شهوة ، لا يربطها بالرجل إلا قانون واحد : أن تحرك — من بعد — من شهوته دائماً بحيث لا تحبوا لها نار . لا تقدم ، ولكن إذا رغب ، عليها أن تعطي . وكان وجه جاسر أدكن اللون ، يفيض من عينييه نخبث غير جبان .

— « يعنى غبت يا نرجس في السوق السبت اللى فات ! ! »
لم يكن استفهاماً ، بل لهجة انتصار تحتها تهديد ..

— « عبال ما بيعت الفروج .. »

وأقبلت مرتبكة على ملابسها تطويها فهي تعلم أن تطلع جاسر
لهذه الأثواب سيورها ، على أن أحداً من أهل البلد لم ير هذه الملابس .
حتى ولا أحب جيرانها إليها

وضحك جاسر بهدوء وكأنه يهمس لنفسه

— « والله إسماعيل منتهى ! ! »

وجلس نرجس تصف الملابس في صندوق أحمر . . هي
ثروة لامرأة لا تبدو في الطرق ، ولا يراها الناس إلا في جلباب
أسود يهبط إلى قدميها ، أبيض الدليل يكتس التراب ، فرجس تموت
على ثوب جديد ، لا تفرط في جلالية مها قدمت أغلب هذه الملابس
من أيام زواجها في بلدها (موش)

نزل إسماعيل بهذا البلد بعد أن ترك السلطة (١) ، يعمل لدى أحد
المقاولين ووصله عن نرجس — وكانت إحدى جيرانه — أخبار
خلاعتها ، وطمع أن يتزوج من بحراوية مثلها فهو بعد تمجوله في
مصر والشام لا يقنع بامرأة من بلده في هذا الوقت جاءه تعويض
السلطة ، وأخذ يصرف الجنيه وراء الجنيه حتى استلقت نظرها .
فتحابلت على زوجها إلى أن طلقها واندلقت على إسماعيل وقد بهرت
ثروته . تزوجته ، ولم تلبث يدها أن نفقت جيوبه في شراء ملابس من
كل صنف ولون وانتهى العمل و نفذ التعويض ، فعاد إسماعيل لبني

(١) لفظ كان يطلق على الإدارة العسكرية البريطانية التي كانت تصيد

الفلاحين لتجنيدهم في فيلق العمال في الحرب العالمية الأولى .

شقيبر يرتزى من إيجار فدانين ، يعيش عيشة فلاح لا يعرف النقود إلا وقت المحصول

فى أول الأمر لم تنقطع شكاية البحراوية من غربتها وعدم قدرتها تحمل الفاقة التى وجلت نفسها فيها فاسترضاهها إسماعيل جهده ، وحرّم نفسه من كل شئ ليجد ما تشرى به « الكستور » و « البرنس عزز » (١) وجاءت سنوات خاسرة ردت إسماعيل فلاحاً لا يجد سوى جلبابه الأزرق يعيش صدره ويرقع ظهره مرات . وعاشت زوجته بصندوقها ، لا تتنازل عن مطعمها أن يزيد ويغتنى . توهمه أنها تشتري بعض ما يراه من ثمن ما تبيعه من بيض دجاج تربيته

والحقيقة ، وهى البحراوية المحربة ، كانت لأجل هذا الصنلوق تفرط فى نفسها بمنفلوط يوم السوق لأحد مشايخ الخضر . وتوصلت على يديه ، وارتقت إلى معرفة بعض شباب الموظفين ولأجلهم كانت إذا خرجت تلبس فى قعر قفها - تحت البيض و ربطة الكتاكت الجلباب الذى يروقه بعضهم يقنع به وبعضهم تدفعه الحاجة للمرأة ، ويأنف من ثيابها وقدميها . فيحميها ويلبسها من ملابس الرجال .

وأتقنت البحراوية دورها ، فهى تباعد ما بين جريمتها وبلدها ، وتتصل بوسط ليس من الفلاحين . ولكن الفحش لا ينكفئ عليه ماجور ، وفاحت رائحة سيرتها ووصلت فى بلدها إلى أنوف خلقت تلشم الجو .

(١) نوع من الأقمشة الدسالية الشعبية .

وخرجت نرجس من الغرفة ، فأمسك جاسر بيدها وأراد أن يدفعها بجسمه ويدخلها الغرفة ، ولكنها انقلبت منه وكرت إلى الفرن فتبعها جاسر ومال عليها يقول :
 — « حرام عليك .. أنا بقي خمستاشر سنة . . »

واستند على الجدار ، وشعر بشيء يجذبه للأرض ، تنفسه سريع وعيناه مشتعلتان . استيقظ فيه وحش طال رقاده ، فلما هم يقوم لم تسعفه قوائمه . هو هائج تجمعت قوته فجأة ، ولكن لا يزال في (دوخة) اليقظة .

وجلس جاسر القرفصاء .. وجسمه كله يرتعش .. ثم مالت رأسه وضمها بين ركبتيه يدين متصلتين .. وتملكته هزة متكررة . نوبة تشنج صرخته . . .

أسرعت نرجس للزير ، يلاحقها من جاسر شخير يلمسها في أذنها ويتسرب إلى أعصابها . وعادت إليه ثم بصب الماء على وجهه .. ولكنها عدلت .. لا يزال هذا الشخير يأسرها لا يعلم أحد ما الذي أثار في ذهنها .. لعلها ذكريات حوادث قديمة .. كانت فيها عبدة قن (١) لحسمها .. في أول شبابها كانت تسكر في بعض الأحيان من عرق البلع وتنسى نفسها . وعند اليقظة تحس بأثر مجهود صوتي في حلقها ..

ألقت الماء على وجهة فشقق .. ورفع رأسه ، فاذا ببصره يقع على عيين كلها خضوع واستسلام . ربما سحراها ما رآته من القوة

(١) العبد إذا ملك هو وأبواه يستوى ليه الاثنان والجمع والمؤنث .

تنفجر وتصرع رجلا. وربما كان ما، أنه في حالة جاسر من رغبة صادقة ملحة .. من أجلها هي .. ولكن لا هنا ولا ذلك إن هو إلا قدر محتوم يهبط على الخلائق، في حواشيه حوادث تسمى مرة مصائدات ومرة موجبات، وما هي إلا نغمة من نغمات الكون في دورانه .. ليس للإنسان فيها إلا ما للثقب في صفيح الناي .

وقام إليها، وماتت يده على معصمها . جرها معه . لا يزال عني الظهر، خطواته سريعة، وأغرب شيء فيها أنها قصيرة، شيء خفي يشد قدميه الواحدة إلى الأخرى ..
وسترهما ظلام الغرفة .

. . .

تغيرت حياة جاسر . هو منذ عام ينام إلى الضحى . ويقضي سحابة النهار بدكان خليل . لم يزر أبو فودة . فغياهب السجن قطعت فيه عرقاً يربط الرجل بمنته . وهو — بعد هذا السجن الطويل — عن العمل عزوف . يود لو تظل حياته كلها حرية .

لكن نرجس أشعلته، رده فربها إلى ماضيه، وأزال عنه نقاهة السجن . وإذا به في اليوم التالي لا اجتماعهما يخرج من مسكنه مع الفجر ويترك البلد عن يساره، ويجد في سيره كأنه في يوم من أيام شبابه .. يسرع كعادته كل صباح ليلحق المعديّة . خمس عشرة سنة مرت كحزم ليلة !! الهوة التي فغرت فاما في حياته لم تقو على زمن له من القفز ما يصل بين ضفتي أوسع الثغرات .

ليس في الطريق مزارع ، وكل ما حوله أرض فضاء رملية
تغوص فيها قدماء الثقيلتان ، ويجاهد بهما - وهو مسرع - يساعدهما
بحركة من كتفيه ...

بعد برهة وقف ذاهلا ... لم يبق بينه وبين النيل سوى خطوات
قليلة ، مع أنه يذكر أنه كان يصل للنيل بعد سير طويل .

وقت شبابه كانت الموردة (١) تقرب من البلد أو تبعد عنها بمسافات
لم يلحظها جاسر ، لا لأنه ليس فلاحاً تهمة القصبه والشبر ، بل لطول
مجاورته للنيل وتعوده على تصارييف هذا المخلوق العجيب ، كحارس
الأسد : يسمع أخفت همس المتفرجين عن البقشيش ، ولا تحس
أذناه شيئاً إذا زار الوحش من على كتفه ..

ولكنه في هذا اليوم لم يتمالك نفسه من الاندهاش . زالت
سطوة العادة وتحجر الفكرة أمام قوة النيل . في خمس عشرة سنة
أكل من بني شقير مسافة رحبية ، كان جاسر يمشيها في أكثر
من نصف ساعة .

وأشرف على الموردة والشمس لما تشرق . على بعد « كوشة »
جير تحرق ويظللها الدخان .. أمامه قلوب بعض المراكب يسمع ضوضاء
بالخالسين فيها .. ووقف جاسر على مرتفع من الجسر . للريح صغير ،
وللنيل تحته دمدمة خفيفة .. هو في عز قبضانه ، يطل عليه كالشبح
ناشئ من طينه . الطبيعة سواء في الاثنين ، ليست الشهوة قاصرة على
الحى .. كلاهما يزرع تحت عبء فورة واحدة ...

(١) ميناء القرية على النهر

فليس أدل على الشهوة من النيل وقت الفيضان . هو طول العام
 طفل نحيل تحمله مصر حرصاً على اليدين ، شفتاها على شفثيه ،
 من رحيق فمه تعيش . ينتهى العام وئدى مصر قد جف . فيه هيب كله
 نداء للارتواء . وللطبيعة انقلابات لا مقياس لقوتها ، فلا يأتى
 الميعاد حتى تنتفض مصر . تحس الرشقة تنقلب قبلة حارة تنفجر بها
 شهوات حبشية تتجمع طول السنة . ويقفز الطفل من بين يديها فإذا
 هو عملاق يد تشد شعرها . ويد نهصر خصرها ، ثم يطويها تحته
 فتغيب . كسائه لها من ماء طحينى ، له فى وسط الوادى هدير ،
 وعلى شفثيه رفرة . ويرتوى فى جوف مصر كل شق ، ونحيا كل
 عين ، ويغور من البلايص ماؤها العفن المدود .

لا ترى قوة النيل فى الدلتا .. هو لا يجد حريرته إلا مع الفيضان ،
 فإذا تخطاها وراء القناطر شعر باللجام فى فمه .. الحسور مجانبية الغمامة
 تحيط بعينى الفرس ، يركبه كل بلد شوطاً ويسلمه لمن بعده ..
 يقترب من البحر وهو شيخ مرت عليه آلاف السنين ، يجرى شوطاً
 واحداً لا يتغير حتى هد الملل والتعب قواه . تنازل عن نضاله
 مع الأرض ، فى مجراه المرسوم يجرى ، هو الذى طالما تقوى وشق ،
 أو تحايل ولف ، يخلق الجزائر ، ويبلغ البحيرات ، تملأ حلقه سدود
 من كثيف النبات فلا يغص ، وتخدعه مستنقعات فى التيه نهايتها
 فلا يضل . .

كل هذا كذب .. فى الصعيد يثبت النيل أنه رغم كل هذا لا يزال
شباباً مفتوناً بنفسه وبقوته .. ليست آلاف الدوامات إلا من دمه الفائز .
له فى كل موردة يد تغازل الفتيات . بين كل حين وآخر تقتنص
فريسة لا تشبع له نهما .. للشواطىء منه عبث الجبار .. وها هو
مع بنى شقير ، فى سنة يمنحها أرضاً خصبة ، وفى سنة يسترد هديته
ومعها أجراها مضاعفاً .. فى خمس عشرة سنة أغار على أرضها
ياكل منها كالمفجوع حتى اقتربت الموردة من البلد للدرجة التى
أذهلت جاسر .

ولفح وجهه ريح رطيب ، فامتألت رثائه وزاد تنفسه عمقا ،
وفصل جسمه عن بهمة الليل بصيص من الضوء الأحمر ييزغ من وراء
الجبل ، رمى له على الأرض ظلا طويلا ، وعلت قامته ، ووقف
لحظة يحرق فى أبو فودة . ثم هبط حيث المراكب .
فى طريقه إلى المعديّة التى جاسر السلام على رجلين جالسين على
الأرض ، ولما تبين أن أحدهما هو شعلان صاحى أحد مستأجرى محاجر
الحكومة ، كرر راجعا وجلس أمامهما ..

- « ياعم شعلان ، أنا عاوز أرجع للشغل ، خلينى وياك .
أنت أحسن من غيرك وطيب .
- آمال انت معدى لمين ؟
- أنا خارج لسه على باب الله .. والحمد لله الى قابلتك .
- طيب روح النهاردة اشتغل فى نمرة ٦ : ولما تشوف شغللت

الحساب يجمع . أنت ما معكش عدة ؟ أنا عارف . قولهم هناك يلوك
العدة اللي سابها الواد على » .

وقام حاسر يلحق المعدية فالتفت شعلان لزميله يقول . :

— « دا حجار كويس ويعرف الشغل .

— مين ده ؟

— آه .. أنت صحيح ما تعرفوش » .

وبدا شعلان يقص قصة جاسر . استمع لها عبد المسيح بهلوه ،
لا يلفظ بحرف ولما انتهى أقبل على حجر صغير في الأرض وأخذ
يلعب به .

عبد المسيح — خفيـر المحجر النظامى

عبد المسيح — خفيـر المحجر النظامى — هو صاحب الطربوش
الوحيد في الجبل ، يرى فيه كالفريـب الضال . جاء لوظيفته بعد
أن ترك خدمة الجيش نوأ . لم ير محجر طوال حياته ، ولم يعاشر
حجاراً من قبل ، ورغم ذلك — ورغم أنه غريب عن البلد ، وديانته
تخالف أغلبية سكان الجبل — فإنه استطاع بعد وقت وجيز أن يفهم أسرار
المحجر ، وأنواع التحجر ، ودقائق العمل ، وأشخاص الحجارة ،
اللبصـوص منهم والأشراف ، بل عرف كيف يكسب صاحب كل
محجر ، وكم يبلغ ربحه . يأتهم مع الصباح المبكر في يده البندقية ،
يجول هنا وهناك فيفهم السرقات التي جرت في غيابه من محاجر
الحكومة . لم يشك للمركز مرة واحدة بل ممكن أن يصل إلى غرضه

يضرب رجلاً برجل ، ومصلحة بمصلحة ، فقلت حوادث السرقات
وهذا الجبل عن ذى قبل . وربطه مع العمال صداقة ، هى من جانبهم
مشوبة باحترام لا يمنحونه الا لمن يعلمون أن نفسه لا تقل عن نفوسهم
صلاية .. وقال شعلان :

« ما حبش لما نسهم .. قلت كام مرة قول الى فى فكرك
ولا تخبيش .

« أخبى على إيه ؟ أنت غلطت .. الراجل ده ما عدش يفلح ،
رح يتعبك فى الشغل . خمستاشر سنة سجن ! مين عارف ح يعلم
الحجارة إيه من الى اتعلمه هناك .

— انت عارف (الرى) مستهجلنى ، وتو ما لقتنه ...
تركه زميله وقام .. الحديث لم يعجبه .

...

تخايلت نرجس على التهرب من جاسر ، فهى تخشى
افتضاحها فى البلد ، وخسرتها أقوى سائر لها : زوجاً غافلاً . على أن
يوم السوق بغرة فى تحصنها لا تستطيع سدها . فمغامرات كل
تاجرة تنتهى حتماً إلى عادة صلبة تدخل برنامج حياتها ، فتؤديها بلا
تفكير كأكلها وشربها .

فى منفلوط ، سوقاً بعد سوق لاحقها جاسر وهو هائج مغيظ .
فليس أكثر تمزيقاً للقلب وبعثاً للغيرة من عشق امرأة تصد فى حين
أنها مبنولة للكثير . وزاده تعلقاً بها أن ذهنه ، فى فورته الفجائية .

وجد من هذه المرأة وعوده قواه ، شعوراً لا يقدم أحد شقيه إلا مع الآخر ، وأصبح كالحاموسة العتيدة يكاد يضرها اللبن في ضرعها ولا تدر به إلا الحالب معين .

وجدها أمام بائع يعصر على صدره يدها ليلبسها « غواثش » زجاجية ضخمة مبرقشة ، فجاء إلى جانبها ودفع لها الثمن ، فلم تمنع . — « إذا كان نفسك في حاجة قوليلي .. ربنا عجن على دله قى ، وأشيئي معلن .

— يا جاسر سيني في حالى ما تخربش على ..
— انت الى ما تخربش على .. أنحرتها أنا الى ح ! أضيع عمرى غلبك .. شوفى .. او تكونى إنت مين ، وميها عملت ، أنا مش ح أسيلك . فهمتى ؟ »

ظهرت الحيرة على وجهها ، فهي بعد تفريطها الأول بين أن تداوم أو تقاوم تخشى لسان جاسر ، وهو يعلم سرها ، أن يجرى باسمها في أنحاء البلد . كل خوفها أن تشتهر سيرتها ، ولم تفكر لحظة في زوجها . فاهتمامها بإسماعيل حى منذ أن ضاعت منه الإجارة (١) ، وأصبح أجرياً بالطورية ، (٢) يقضى أكثر الأيام عاطلاً ، لا شغل له سوى النوم فوق الفرن . يوم وراء يوم وهو في خمول لا يسأل إلا عن أكله . لا ينقصه إلا أن يتكلم ويقول إنه فاهم . وموافق . . مادامت من وراء سعيها ستفق عليه .

(١) حقه في استئجار أرض كان يزرعها .

(٢) اسم الناس في الصحه .

ومتى هبط الزوج إلى هذه الدركة ، أصبح إصبعاً يشير لا درعاً يسر ، ولكنه - على الأقل - ينفع الآن حجة تهرب بها .

- « أنت عارف إسماعيل بارك في البيت .

- إسماعيل مين ذا اللي مالى عينك ؟ قولى لىنى الى مش عاوزه «
هل تقطع الخيط وتواجه الفضيحة ؟ لم يكن مقصدها إلا أن تطوح بجاسر :

- « أهو شغلك شغله فيه » .

ثم افترقا . . ولم تخط خطوتين حتى أشرق عليها إدراك غريب ، كانت قلقة لسان ، ولكن هل فهمها بمعنى آخر ؟ وتملكها اضطراب شديد لم تعهده من قبل ، وبدأت خطواتها تسرع على غفلة منها :

فليف الإثنان معاً .. وماذا يهمها .. لفت رأسها فجأة روح من عدم المبالاة و « ضرب الدنيا طبنجة » ، هى امرأة تتاجر بعرضها وجدت نفسها فى ركن .

ولكن البجراوية غير سهلة .. وليس كل تفكيرها سلبياً ..
ففى بعض الأحيان تقوم بنفسها نزعات من الشر لم تتح لها الظروف أن تتعرف مداها .. وكأنها غاظها أن يلعب بها ولا تساهم ، فإذا بها تكبر راجعة تبحث عن جاسر ، لحقته فى الطريق ولمست كتفه .

- « إذا كان كده .. أحسن نزل من المنامة اللي حلانا ..

شوفلك حنة غيرها .

وتلاقى النظران ثم ولت مسرعة

وسار جاسر يتمهل في خطواته . كان غير واثق من فهمه ، فإذا بهذه اللمحة السريعة تبدد شكوكه .. وجعلته يدرك ، لا الذى تقصد نرجس بابتعاده عن جبرتها ، بل أنارت له طريقاً واضحاً يسهل عليه بعد ذلك الوصول لنهايته .. القروية هى المدبرة ، وخريج السجون تبع ! وكان فى حاجة إلى التفكير فى هدوء . فأخذ طريقه إلى قهوة يعرفها فى نفطة المومسات .. وعلى دكة خشبية جلس ، تفوح فى الجورائحة تخمر شديد من بوظة (١) مجاورة ، وتصل إليه نغمت رقص على مزمار وطبله ، وأمامه عدة نسوة يفرشن الأرض تحت ظل شجرة على حافة الجسر ..

ولكن جاسر ليس هناك .. ترك إسماعيل وأخذ يفكر فى نرجس عندما يحولها لن تجد فيه زوجاً « نعمة » كإسماعيل . فى أول لياليه سيسويها بضرب موجع ، لتفهم أنه من عينة أخرى لا تحتل اللعب على اللقون .. سيحبسها فى الدار ويقفل عليها بالفتاح .. وشدت يده بغضب على جوزة التماك .. وتكررت نفخاته ، يجاوبها الماء بكركرته ، وغاب فى تفكير .. على يديه دم وجل ، ولكنه لم يقتله إلا فى لحظة غضب دون أن يعي لنفسه . أما الآن ، بعد خمس عشرة سنة فى السجن ، فهو قادر على أن يصنع المصيدة ويستهوئ فريسته إليها .. ولكن مشروعه يحتاج للصبر . سيروض

(١) مكان حطب البوظة ، وهو هجين من السكر

نفسه عليه . قصبة يذكرها الآن لأحد زملائه في طرة .. قتل له ابن في ريعان شبابه في جصة طلبه للجهادية ، ولم يكن لغريمه ذكر يثار منه سوى صبي يلعب ، فصبر عليه ، إلى أن جاء ميعاد فرزه ، فرماه بالرصاص .
هذا هو الصبر .

...

وأثبتت الأيام أن عبد المسيح على حق . فالحيوية التي استيقظت في جاسر جعلته لا يستطيع الصبر على معيشة الحجارة ، ينكفيء على عمل واحد من الفجر إلى المغرب . وعلى مهل بدأ نقل من عمله ، ويتداخل أكثر فأكثر في إدارة المحجر . يوماً يفرق بين عاملين ملتحمين ، ويوماً يحمر عينه لمراكبي يعاكسهم في الشحن . ولسابقة خبرته في المحجر ، وفي طرة ، لم تحب له نصيحة واحدة . ولم يمض زمن طويل حتى أصبح من جديد ، رغم غيابه ، مرجع العمال جميعاً ، يحترمونه وينصتون لرأيه .

وأنعمض شعلان عن هذه الحركات عينه . هو جم المشاغل ، كثير التغيب عن المحجر ، ووجود رجل مثل جاسر يوفر عليه وقتاً يضيع في سياسة منازعات عديدة عقدتها لاثحل إلا إذا جاء ورأى وحكم .
وانتهى الأمر بجاسر إلى أن أصبح ريساً للمحجر نمرة ٦ .

في ليلة جلس جاسر في دكان خليل يتحدث بصوت مرتفع ويصاحك الحلاس ، ويطلب لهم على حسابه دوراً من الشاي .. ولما جاءت الأكواب التفت إليهم يقول :

— « يا ولاد باركولى .. النهاردة قرئت الفاتحة فى الجبل مع حسين رمضان يجوزنى بنته ، حكاية زى الحدوته .. أعمل إيه ؟ عاوز أجوز من يوم ما رجعت . رزقى دلوقتى متسع والحمد لله .. ومن يوم ما (عزلت) عن ابن خالى إسماعيل لقبلى البلد ، وأنا مش متهنى ع اللقمة ، عاوز لى مرة تخدمنى » ..

ولما ترك القهوة دار حديث الموجودين عنه .. كيف صار الآن فى نعمة يبعثر اقوده ، ويشترى قلع عزى البلح ، ويجهز عليه فى يومين . .

— « والله يقوم بجميل إسماعيل الأول .. الراجل شوية شوية ح يسف التراب ، وأولى بقرش من قريه ..

— عشان تصرفه البحر اوية على كحلها ؟

— إزاي ؟ أنا سمعت أنه خده وياه للجبل وشاف له شغله هناك ...

— حقيقى .. امبارح شايفهم الاتنين معدين سوا ..

— إسماعيل من ساعة ما سافر للسلطة وساب طينه ، ماعدش يفلح . .

— صحيح . . هو يعرف إيه فى شغل الحجر . . .

وهذا ما قاله إسماعيل من قبل ، ولكن جاسر طمأنه وأفهمه انه لن يعمل إلا فى نقل بعض الأحجار من حافة الماء للمركب . بين لإثنين خطوات ، سيكون معه يساعده ، ثلاثه قروش بزيته ..

ولإسماعيل — على رأى بلدياته — فلاح خائب ، لا تربطه بالأرض
ما يربط باقى الفلاحين ، يموتون ولا يفارقونها ، وساقه الجوع إلى
الجبل مرعماً وراءه تحريض نرجس . .

— « ليه ما تروحش . . انت مش راجل زى الرجالة ؟ »

سار لإسماعيل إلى الموردة ونزل فى المعدية كسير القلب ، أمامه
على الضعفه الأخرى محجر أبو فودة غير واضح ، فلا تزال الشمس وراءه
ولكن بعض الأصوات يقذفها الهواء متفرقة من الجبل إلى أذنيه . .
كلها وقع الخلد على الحجر . . ولم تتوسط المعدية النيل حتى استعاذ
المراكبي من الريح . وطلب من الله المعونة لأصحاب المراكب الذين
سيسوقهم سوء الحظ للمرور فى هذا اليوم . .

لا يجهل مراكبي واحد يحب الصعيد اسم أبو فودة . . إذا
دنا منه توترت أعصابه وزاد صراخه ، وهم إلى قلوعه يربطها . .
فإذا جاوزه حمد الله وجلس يغنى إن كان شاباً ، أو يقضم من لقمة
و « يربش » بعينه فى نور النهار ، إن كان شيخاً . . لا مأمن لأبو
فودة ، تحس المراكب أمامه أن الجبل واقف لها بالمرصاد كالشيطان
ينفخ عليها ريحاً خبيثة تملأ القلوع وتميلها للماء . . بعضهم يعلل السبب
بأن الهواء يضرب الجبل فيرتد فى دوامة خفية تهبط على القلوع فتصرعها
بحراً . . ولكن المراكبية كلهم يعتقدون أن فى أبو فودة شيئاً مرصوداً
من القدم يدفع بالمراكب لحنفها ، لاشأن للهواء أو الريح . فكم من
مركب قاربته وقلوعها ترفرف ، ليس فى الجو نسمة ، فإذا جاءت .

تحته انتفخ القلع وترنج المركب من ضربة خفية ، وانقلب ظهرها فوق الماء . .

وجلس إسماعيل يستمع لهذه الأحاديث فتعلا قلبه سخطاً ، وحمل هم المعديّة تنتظره كل يوم صباحاً ومساءً . ثم تجاوزت المعديّة وسط النيل ، وبدأت الشمس تعلق رأس الجبل وتلقى أشعتها على سفحه المواجه للنيل ، فظهر الحجر أبيض ناصع اللون يرتد عنه الضوء في بهرة ووهج . . وتبين إسماعيل مصدر الأصوات التي وصلته وهو على الشاطئ . . كل الجبل مرشوق برجال معلقين على سفحه مربوطين من وسطهم بالجبال . في أيديهم حديد يضربون به الجبل ، ويرتد الصدى من كل النواحي ، بعضهم يغنى وهو يدق ، وبعضهم منهمك في عمله ، لا تتأخر ضربة عن ميعادها الموزون .

هي أول مرة يعدى فيها . كان يظن طول عمره أن الجبل بعيد عن الماء بمسافة ، ولكنه هذه المرة رأى كيف يلطم الماء الحجر لظماً . بعض الأحجار المتناثرة غرق في الماء لنصفها كيف ينبت من الماء مثل هذا الصخر قد يبدو كأن النيل راكم أمام أبو فودة يغسل له قدميه ولكن دمدمة التيار يضرب الحجر ، حداوة صريحة بين القوتين . . النزاع طويل . . منذ القدم ، فليس الجبل من طينة شواطئ الوادي . . عناصر من الطبيعة متكافئة ، ينسل من بينها مخلوق ضئيل . إذا وقف على سفح الجبل تبين حقارته ، ولكنه الأقوى ، يركب ظهر أحد الخصمين وبعلو هامة الثاني بيده من الحديد والنار ما فت

في دروع الجبل . . يقطع من لحمه كل يوم ولا تمتلئ عينه حتى
أصبح الجبل كجاموسة الفلاح ، من طول جوعها ، بارزة العظام على
الجنبين ، بينها بطن مهضومة .

وفجأة دوى في الجو صوت مرتفع .

— وردة . . . وردة (١) . . .

تناثر ثشة العمال الذين ينقلون الأحجار أمام الموردة وجرى
إسماعيل مرتبكاً وراءهم . وخطف بصره وسط السفح لهيب من نار
وسط دخان أسود ، يعقبه سحب أبيض . . وفي اللحظة عينها ملأ
أذنية دوى مكتوم هلع له قلبه ، وتدفت أكوام الحجر كالطر ،
تتلحرج . . تتدحرج . . الكبير منها يصل إلى الماء . والصغير قد يقف في
منتصف الطريق .

والثفت إسماعيل يسأل أحد الحجارة وهو يشير إلى حجر كبير
استقر على بعد من الموردة :

— « ودا ح تشيلوه إزاي

فأجابه العامل وهو يضحك .

— « ما تخافش . . دا ح نكسره باللغم كام حته .

شعر من هذه الضحكة أنه سيعيش غريباً عن الجبل والعمال ،
كلهم قساة لا شهوة لهم في التحدث وقت الشغل ، وأغرب شيء فيهم
أنهم من سحنة واحدة لا يفارقها العثير (٢) . . أيديهم غليظة ،

(١) كلمة تحذير معروفة عن الكلمة الإيطالية افرلجي بمعنى احترس وكانت

شائعة على السنة اليهودية في الاسكندرية بنفس المعنى .

(٢) الغراب .

ظهورهم محنية، هل تفرعوا جميعاً من أصل واحد؟ أم هو الجبل لا يستهوى إلا طرازاً خاصاً؟

واستمر إسماعيل في نقل الحجارة أياماً متعددة حتى ألف الجبل والعمال. واعتادت أذنه دوى اللغم وترجيع الصدى، وأصبح يفهم الألفاظ التي يتبادلها زملاؤه، ولكنه ظل رغم هذا في مرتبة الصبيان أجراً، لا يتعدى عمله نقل الحجارة من مكانه إلى مراكب الشحن.

في فترة من فترات سخطه، جاءه جاسر يفهمه أنه لو كان غيره مكانه لتشجع قليلاً وترك هذا العمل البسيط إلى ما هو أربح.. وأخذ إلى سفح الجبل وأراه علامة.. هنا يراد فتح ثقب للغم جديد.. ما عليه إلا أن يكون معه المدق — عود غليظ من الحديد رأسه مدببة، والمعلقة صيخ طويل في نهايته كف صغير لتنظيف الثقوب — ويدق في الحجر إلى أن يستحدث به ثقباً مستقيماً طوله نصف متر تقريباً.. ليس يطلب منه شيء أكثر من هذا.. وعلى جاسر بعد ذلك ملؤه بالبارود وكبسه وإطلاق النار فيه.

لم يفلح إسماعيل في أول الأمر في إحداث الثقب. وهدل به جاسر عن هذا الموضع إلى غيره، ولكنه — بعد أيام — سار في عمله وأخذ يمر على الأمكنة التي يجدها فيها العلامة ويشغل.. هو إلى اليوم يعمل واقفاً على رجلبيه.. بعد أيام وجد نفسه مضطراً لفتح ثقب في علامة تحت نتوء وسط سفح الجبل لا يستطيع الوصول إليه. وفهم لماذا يضطر العمال لربط أنفسهم في حبال تتدلى من صخور بارزة في أعلى الجبل..

ليهبطوا إلى أمكنة لا يتسنى لهم الصعود إليها. عن يسار المحجر بمسافة غير قصيرة ، طريق يؤدي إلى رأس الجبل . من هذا الطريق يصلون للصخور البارزة ، ويدل الحجار الجبل بعد عقد طرفه بأحد الصخور ثم يهبط عليه حتى يصل لعلامته ، فيربط حزاماً في وسطه بالجبل ويظل حر اليدين .

وتعلق لإسماعيل بالجبل مراراً ، وجاسر يقود خطاه . . وأصبح لا يخشى موقفه بين السماء والنيل .

في النهار أبو فودة حركة وفرقة ودوى ، وفي الليل سكون وهواء يصفر . . في ليلة مظلمة في أوائل الشهر رأى أبو فودة جاسراً يعود إليه منفرداً في قارب صغير . . ثم يتحسس خطاه ويقفز من حجر إلى حجر . يحاول أن يصل لرأس الجبل من الطريق المرسوم ، ولكن رجليه - دائماً رجلاه - عاجزان وحركتهما بطيئة ، فهو يسند نفسه كل حين وأخريده ، ويقف ينصت . في لحظة خيل إليه أن الظلان حوله تتحرك إذا ضربها الهواء ... وتمالك نفسه ، يسير مخفي الظهر تنفسه مسموع . لقيه على رأس الجبل هواء بارد ، يهب على وجهه فلا يؤثر في الحمى التي تملك جسمه ، العرق يتصبب من جبينه ، ولسانه جاف ، ، ،

ووقف جاسر عند صخرة نائنة حولها جبل معقود ، ذيله الطويل يتدل إلى سفح الجبل يكاد يصل إلى الماء . . تلمس موضع العقدة وشرع يزحزح الجبل إلى أن جاءت أمامه . وأخذ يعمل فيها يديه . . ثم أسنانه حتى فكها . .

كل الحجارة يفهمون في الحبال وطرق عقدها . . وكان جاسر أيام شبابه - أمهر العمال في اصطناع العقد ، له عقدة يحدتها بين - حبلين في غمضة . ، ومع ذلك يكتفى أن يقع على طرفها ضغط يسبر حتى تقوى وتصبح كوثاق الحديد . . ليس هذا كل ما يعرفه . . بل كان ماهراً أيضاً في اصطناع عقدة تظهر ملتوية ضخمة ، متداخلة ، لا يشك من يراها أنها تقاوم القناطير ، ثم يطلب من أحد الواقفين أن يجلب طرف الحبل على مهل ، فإذا بهاتفكك شيئاً فشيئاً ، وإذا بها أكبر الخلدع .

أعاد جاسر لف الحبل على الصخرة ، وجلس يدين مرتعشتين بعقد الطرفين عقدة لن تدهش المتفرجين هذه المرة ، بل تستند عليها روح معلقة بين السماء والماء ، وسط أكوام الحجارة التي لا تلبث إذا سقط عليها الجسم تلقفه بأسنانها ، تمزق أوصاله ، وتهشم رأسه فتاتاً . .

وعاد جاسر بقاربه وربطه حيث كان في مؤخرة مركب كبيرة محملة قللا وبلايص ، لحقها الليل أمام بنى شقير ، فركنت في الموردة ، وكان أهلها في نوم عميق . .

لم يغمض له جفن طول الليل . . جسمه يرتعش رعشه مكتومة . . الكلاب تعوى حوله ، وللديكه آذان كله نداء وتنبيه .

في الصباح ، بعد ميعاده ، خرج من منزله لافاً رأسه ومعظم وجهه في لاسة من الصوف ، يقول لكل من يسأله - وهو في خطو

المشلول — إنه مريض . بين جنبيه هوة إذا أطلت عليها نفسه لم تر إلا خوفاً ورعباً يحقدان فيها هو مريض ضعيف ولكنه قبل كل شيء يريد من ربطة اللامسة أن يتخفى وجهه ويستر اصفراره واستقل المعذية معه عدد من الحجارة المتأخرين ، جلس بينهم متخاذلاً ذاهلاً عما حوله المناظر التي تبصرها عياه تقع على مخ صدىء ، فلا يفهم منها شيئاً .. وبدأ أبو فودة يتضح . كل يوم له ألف لسان من معول حديد يصدم به الحجر ولكنه الآن أخرس واجم .. وزاد من تساؤل ركاب المعذية أنهم رأوا عند ما اقتربوا ، جمعاً من الحجارة يجرى من أعلى الجبل لأسفله . بعضهم يحرك ذراعيه ، وبعضهم يصرخ كالقرويين جميعاً إذا أرادوا لسماع صوتهم لبعيد ، في صرخة طويلة موجهة تنتهى بعويل .

وقفز الجمع فاندس بينهم جاسر .. تلقفهم العمال بالخير .. إسماعيل جاء كهادته ، وطلع للجبل وهبط على الجبل ليبدأ عمله ، وفجأة — وبلون سبب واضح — رأوه يهوى .. صرخ مرة واحدة ثم لم ينطق ... رقراق من الدم يسيل من طرف الفم على خده عين مسودة ، حاجبها مجروح ، وعين كبيرة جاحظة . . مر الرعب عليها وهو هارب فتلقفته منها يد الموت . . فهو فيها أسير مقيم .. وارتمى جاسر على الخثة يحضنها ويبكى . — « آه . . آه يا ابن خالى » .

ونقلت الخثة — في المعذية ! — إلى بنى شقير ، يألف النيل منذ الفراعنة ترجع الميت من أولاده على ظهره .. في الغرب المنازل ، وفي الشرق القبور . . ونزته الوداع !

فوصل إلى عبد المسيح خبر موت إسماعيل ، فأسرع إلى محل
الحادثة ، وكان الحبل لا يزال موجودا فأخذه بين يديه يقلب فيه ..
يستمع للحديث حجار واقف وراءه .

— « هو لازم ما عرفش يعقد الحبل كويس .. ماتبهاش بالحبل » .

فقام عبد المسيح ينصرف .. لم يلتفت للحجارة .. وكأنه يهمس
لنفسه لا يسمعه قوله :

— « له رب ... » .

ومرت أيام طويلة .. ورأى الشقراوية كيف يطلب جاسر من
حسين رمضان أن يحله من « فائحة » ابنته ، لأنه لا يجد مفرأ من أن
يتزوج من أرملة ابن خاله .. المصيبة مصيبتها .. هي بحرأوية ..
فارقت بلدها وأهلها .. وليس لها عائل في بني شقير .

وضمهما منزل واحد .. في لذة يعرفها أكثر الناس
هي عندهم شيء يأتي ويذهب ، وهي في نرجس وجاسر عنصر مقيم ..
وارتوى جسمه على الغذاء الحديد .. في أول الأمر أصابه ضعف
شديد ، ثم انقلب إلى سمته ، اختفت معها عظمتا خده ، وانتفخ شديقه
وظهر له كرش كبير .. وزاد لإقباله على عرق البلح ، وكثرث في
الحبل حديثه ، وبدأ العمال يتدمرون من محاولته ، في غير مناسبة ،
أن يتدخل في مصالحهم والسيطرة عليهم ، وهو كسل لا يقوم بعمل .

مر عليه شعلان ذات يوم وهو في الحجر ، وتعمد أمام العمال جميعا أن يؤنبه على بعض إهماله . . وهدده بإخراجه من عمله إن لم يعتبر . . لم يجاوبه جاسر إلا بكلمات متقطعة . . ثم انتظر حتى اختفى الرجل وعاد إلى عمله . . هو جالس عند حافة المساء على حجر ضخم في وسطه ثقب عميق ، بجانبه كيس بارود يتناول منه بحذر ويسكبه في الثقب . . ثم ضحك :

— « يخي عم شعلان فاكر رزقي في إيدته ؟ يعجبه أسيب الشغل وأروح نمرة ؟ أهم عاوزيني هناك . . »

وامتلاً الثقب إلى ثلثه . . فجاء جاسر بالقتيل وهو عصا من جريد مشبعة بمعجون البارود ، وركزه في الثقب وسط كوم البارود ، وتناول من تراب ناعم بجانبه حفنة وألقاها حول الفتيلة .

— « انت ياواد ياعلوان — دقيت الحجر ده كويس ؟ أوع يكون فيه حصوه ؟ » .

جاءه الجواب من عامل معلق .

— « كله كويس . . أهو قدامك شوفه » .

ومد جاسر يده يكبس التراب حول الفتيلة . . ثم ترك الشغل ووقف :

— « يبقى يشوف عم شعلان لما أسيبه الشغل يمشي إزاي ؟ »
ووصل التراب إلى حافة الحجر ، فأخذ جاسر عموداً قصيراً من الحديد وبدأ يكبس التراب بهدوء وبطء . . ثم تركه وعاد للحديثه من جديد . .

- « أنا ح أخاف من إيه ؟ مش عارف ان نص عمرى راح فى السجن ؟ دنا رد اللومان » .

وضغط بالعمود مرات قليلة حول الفتيلة البارزة :

- « أوعا بقا . . . وردة . . . وردة . . . وردة ياواد يا محمود ، وردة يا حسين ، سيب الشغل دلوقتى يا عوض » . وأخرج من جيبه علبة كبريت . . . وانحنى ظهره فوق الحجر . . . ومال بوجهه على الفتيلة . . . ثم أشعل العود ولمس بالنار عصا الجريد . . . لم يسر اللهب بها . . . لا يزال عود الكبريت مشتعلًا فى يده . . . عيناه على رأس الفتيلة تراقبها . . . واقتربت يده بالنار مرة أخرى . وفجأة قذف الحجر إلى وجهه فى دوى كز مجرة الوحش تراباً ولهباً ودخاناً وباروداً محترقاً وغير محترق . . . اختفى وجهه لحظة وسط اللحم . . . ثم انقشع السحاب فإذا هو ملقى على الأرض . . .

تجمع العمال عليه . . . ليست الحادثة الأولى فى محجر أبو فودة . كم عامل قبله قاده سوء الحظ إلى إشعال لغم منفس وفقد روحه . . . أو فقد شعره وجلده ، وسكن البارود غير المحترق فى وجهه فى علامات أشبه بالجلدى . . . وكم عامل تفحم أنفه . . . ولكن جاسر فقد عينيه . . .

يعيش جاسر من إحسان الناس . . . غير أنه لا يستطيع الابتعاد عن أبو فودة . فى الصباح المبكر يكون أول من يصل إلى المعديّة . . .

إذا سمع صوت الحجارة مقبلين ، قلب يده في الهواء يريد أن
يتشبث بواحد منهم . . كل يوم يعدى إلى المحجر . يرقط طول النهار
تحت سفح الجبل يستمع لأصوات المعاول ولغم البارود . . لا يزال لسانه
« زفرا » ، بل ربما زادت شتائم ولعناته . . يقبل لقمة « البتاو »
تعطى إليه ، لا يحمد ولا يشكر . . هو زميل احتمله الحجارة بينهم في
عطف غير طائش أو ثرثار . . نصفه كرم ونصفه قسوة . كل من يحل
بالمحجر يأسره منظر هذا الرجل السمين ، وجهه مبقع حواجه من جلد
وجروح ، عيناه كعيني البوم إذا أغمضهما . .

ووجد جاسر في العصا ما يتوكأ عليه ويساعده في خطوه . .
من كان يظن أن خطوة جاسر المترنحة وقدميه الثقيلتين نبوءة عجيبة
بعماه ؟ مشيته هي هي لم تتغير . . ولكنها لا تستثير الآن فيمن يراه
دهشة أو عجباً . . فليس أمامه إلا أعمى يتحسس لقدميه موضعاً . من
أين له أن يعلم أن هذه المشية « دمغة » لا تزول أرث سجن طويل
عاش فيه جاسر تربط رجله الواحدة بالأخرى سلسلة قصيرة . .
خمس عشرة سنة تندفأ من حرارته . . هي عرق في جسمه . . يكاد
يجرى فيها دمه X

X نشرت أبو فودة في جريدة السياسة الأسبوعية ملحق العدد ٣٠٢٧

١٩٣٣/٢/٣ ، ص ١٤ ، ١٥ ملحق العدد ٣٠٥٧ ، ١٩٣٣/٣/١١ ص ٢٦ ، ٢٧

حياة لعل

حياة نص

عندما انتظم حسين ابراهيم في سلك الخفراء بالقاهرة كان فخر الطابور بقامته المرتفعة وصدره العريض وذراعيه القويتين وجبهته وهي ملساء تلمع حياة وشباباً . وامتاز فوق ذلك بجرأته التي اكتسبها من قضاء لياليه منفرداً وسط الحقول لحراستها . وحبيه إلى رفقاته أنه ذو حديث حلو يدل على معلومات واسعة وذكاء طبيعي صفاته المدبنة وأبرزته .

وازدادت قيمته لديهم وكثر إعجابهم به عندما أذاع بينهم أحد أصدقائه قصة حدث بها حسين في نشوة من نشوات الذكرى التي تدفع صاحبها إلى البوح بعاطفته فتغلبه وتغلب فيه حب التكتم

والانفراد . فعلموا أنه قروى نشأ بالريف وترى وسط حقوله ولولا
 القدر لكان يرتدى اليوم بدل معطفه الخشن الأصفر جلباب الفلاح
 الأزرق الملطخ الحائل اللون . وكان يقضى طول يومه مخي الظهر
 فوق فأسه بدل أن يظل الآن منتصب القامة معتمداً على نبوته الطويل .
 فأى شئ غير القدر هو الذى يرمى بالمرأة فى طريق الرجل فتخرجه
 من حياة إلى حياة أو يجعل منه شخصاً غير ما كان ! قصته إذن قصة امرأة
 كانت مشهورة فى القرية بميلها إلى الرجال وقلة تورعها فى التحدث إليهم
 ومقابلتهم وما لبثت أن انتقلت إلى البندر تحت ضغط الوسط الذى تعيش
 فيه لترتزق هناك من عرضها ... وهى نهاية محتومة لكل فتاة تسبى
 بشرفها فى الريف ، وإن هربت منها فإلى موت أكيد ؟

فهجرت الفتى قريته ورحل إليها ، ثم ما لبثت أن جرت به إلى العاصمة
 فهوى معها حيث استمر عاطلاً زمناً غير قصير تلوق فيه فقر
 المدينة على خلاف ما كان يعمده من فقر الريف . ففلاحو القرية فقراء
 ولكن لا يمتاز بعضهم عن بعض . يسرون جميعاً من حقلمهم إلى
 دارهم كتفاً جنب كتف ، ولكنه فى المدينة فقير وسط أغنياء .
 يقطع المسافات الطويلة سعياً على قدميه ليصل إلى أحقر سقف يظل
 إنساناً تحت سماء المدينة !

وظلت علاقته بالفتاة متصلة إلى أن أصابها شئ من الفتور .
 ولو أن هذه الظروف أحاطت بغيره لا لتمس النجاة فى الرجوع
 إلى قريته ولكنه آثر البقاء فى المدينة إشفافاً من نخجل يزعم أنه يشعر به

إذا وجد نفسه مرة أخرى بين أهالى قريته وهم لا يعرفونه إلا بشهرته في متابعة فتاة من بلد إلى بلد . وهذا عند متحل إذ لا شك في أن السبب الحقيقي هو أنه سقط تحت تأثير المدينة . وقد استهوته بأنوارها ورفاهيتها . ومن لا يلتمس له العذر . وقد انتقل من أبسط وسط وأنحسنة إلى مدينة يعتبر مجرد الوجود بها والسير في طرقاتها لذة وتنعماً . والمدينة للقروى كالخمر للشارب تسحره وتأسره فيقلب عبداً ذليلاً لها ويضع تحت قدميها حياته الوديعه الهادئة ليستبدل بها حياة محومة مضطربة ولكن تتابها بين حين وآخر نوبات سرور ! ولذلك قنع حسنين ابراهيم أن يكون خفياً يتناول أول كل شهر اثنين من الخنفيات لا تقيم له أوداً ولا تبيء بكفاف زوج وطفلين (وأى عجب في أن يعشق حسنين ابراهيم امرأة وهو مترح من أخرى .. أليست زوجته نوعاً من المتاع لا قيمة له ولا تدخل في حسابه ؟)

وكان من تأثير هذه الفتنة أن أقر له زملاؤه بنوع من البطولة التي وإن كانوا ينكرونها جهاراً فهم يعجبون بها سرّاً ، ويتمنى أحدهم لو وقع له في حياته ما وقع للبطل . ومن هنا كان أكثرهم يستشير في أموره وينتصح برأيه .

مرت عليه شهور إلى أن كان دركه في شارع تجارى كبير . ولكنه شارع وطنى لا يلبث مؤذن العشاء أن يدعو الناس إلى الصلاة حتى يهرع أصحاب المحال التي به إلى تلبية ندائه ، فيغلقون أبوابها ،

فإذا قضوا الصلاة اتجهوا إلى منازلهم القرية وكل منهم يحمل شيئاً من ماكل وفاكهة .

فلذا تقدم الليل أصبح الشارع مظلماً صامتاً لاحتركة فيه . ترتعش في أرجائه أضواء المصابيح إذا ضربها الهواء فترقص معها على الجدران أشباح سوداء غريبة .

في وسط هذه الوحدة الموحشة قضى حسين ابراهيم أياماً طويلة لا يشغله عمل واحد يستطيع أن يحصر فيه تفكيره لينجو بنفسه من قبضة. ملل يطحنه بقرنيه فيبعث إليه التأفف والسأم في عمله وحياته .

وكان الشارع لديه في أول الأمر شيئاً جديداً له بهجة كل جديد ولذته فشغل حسين نفسه بدراسة الشارع دراسة دقيقة حتى ألفه وحفظه كما يحفظ المرتل أنشودة يتلوها عن ظهر قلب ولكن الاعتياد والتكرار أفقده كل للذة وسلباه اهتمامه فأصبحت حياته بالشارع عملاً يؤديه رنما عنه وهو غائب الذهن غير مبالي أومهمته . ثم انتهى به السأم إلى أن اختار حجراً بالطريق يجلس عليه معظم الميل يسلى نفسه بتنظيف غطاء رأسه بكم معطفه ويقتل شاربته يمينا ويساراً ...

فكم من مرة قطع فيها الشارع سيراً وذهاباً وإياباً فاحصاً بنظره الأرض ، محدقاً في أبواب المنازل مختبراً لأقفال المحال (حتى يطمئن على دركه) منصتاً للأصوات الماثفة التي تخرج إليه من المنازل . ولقد كان يحدث أنه كان يقف أثناء سيره أويسعى من أول الشارع إلى منزل ينصت بانتباه إلى ما يصدر عنه من أصوات ...

وبذلك أصبحت حياته جزءاً من حياة الشارع ، يعلم كم حفرة
تفسد استواء الطريق ، وموضع كل منها . اعتاد حسنين ابراهيم
أن ينتظر بشغف كل ليلة رجلاً يرجع إلى داره متأخراً ويجلس بجانب
النافذة والغرفة مظلمة يدخن لفافة التبغ وهو يحدق في السماء
فكأنه بينه وبين هذا الرجل ميعاد في كل ليلة ...

وإذا وقف بأول الطريق علم وهو بمكانه أى المنازل ينبعث منها
صوت بكاء طفل صغير يصحبه صوت امرأة تغنى له وهي تضرب ظهره
ضربات تترن مع نغمتها وتسمع بجلاء من الشارع . وأصبح لا يهتم
عندما يسمع بعد منتصف كل ليلة صوت رجل مريض يتأوه ويتوجع
ولا لأصوات المشاة والعراك بين رجل وامرأة في منزل آخر .

وكم من مرة أبصت لطالب يستذكر دروسه في أول الليل
بصوت مرتفع حتى يأوى إلى فراشه بل أصبح ينظم أوقاته ويعلم بمرور
الزمن بمميزات أو جدها لنفسه ، فعلامته على أن منتصف الليل
قد مضى فتى قصير القامة يقبل إلى داره في خطوات بطيئة ، واضعاً
يديه في جيبي بنطلونه وحاملاً في تجويف ذراعه الأيسر رزمة ضخمة
من الجرائد يسير ولفافته في طرف فمه ، وطربوشه منحدر
فوق جبهته ، وعيناه باحثتان عن شيء ضائع منه في الأرض
ويدله على اقتراب الفجر صوت جرس المنبه يذق من أحد المنازل
فيسيقظ على صوته المزعج رجل يلبس قبقابه ثم يحول به في أنحاء

منزله ثم يتلوه في تلاوة القرآن . وكلما كانت هذه المميزات والعلامات
تخطىء معه .

. . .

في ليلة من ليالى الشتاء الباردة التى يقر فيها الناس في بيوتهم
يتدفأون كان حسين ابراهيم كعادته بالشارع ، هو وحده الذى
لامأوى له من الأمطار الهاطلة والرياح الموحش ! وكان من عادته
أن يتخذ من بروز بعض المنازل في الطريق سترأ له من رذاذ المطر .

في هذه الليلة وبعد انتصاف الليل بكثير لمح حسين ابراهيم شخصاً يأتي
من بعد تطوف برأسه هالة بيضاء يسير محنى الرأس والظهر وكأنه
جسد بلا ذراعين في مشية كشية الرجل فقد شيئاً يبحث عنه باهتمام
في الأرض دون أن يقف في سيرة ، وكان هذا الشخص الغريب
يسير بجانب الجدار ويتسكع قليلاً بجانب أبواب المحال ، بل إنه وقف
مرة أمام أحد الأبواب وأطال ، وعندما اقترب من حسين ابراهيم
ورآه نشط في مشيته ، واستطاع حسين أن يراه ويتبينه فإذا الهالة
البيضاء (كوفية) يلفها الرجل حول رأسه ويغطي بها أذنيه وإذا
هو قد لف ذراعيه واضعاً كفيه تحت ابطينه وانكشفت رقبته فمال
رأسه إلى صدره من تأثير البرد وطلباً للدفء الذى لا يجلبه إليه ما يلبسه
من لباس رقيق : ولما حاذى الخفير التفت إليه وبصوت أجش كأن
صاحبه لم يتكلم منذ مدة قال (سلام عليكم) ثم أرغم نفسه على
كحة ليسلك بها زوره ، فأجابه حسين بشيء من الريبة (سلام) على .

خلاف عادته إذا رد التحية فإنه يقول (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) ثم تبعه بنظره متمهلاً حتى غاب الشخص عن نظره .

والواقع أن حسين إبراهيم عندما طالت مدته بالشارع اعتاد أن يتفحص كل شخص يجده يمر أمامه ليجد لنفسه مجالا جديداً تستريح عيناه بالنظر إليه وينشط فكره ويستفيق من رقاده وسأله . اعتاد حسين إبراهيم أن يقصد إلى قهوة (حسن على) عصر كل يوم ليتناول (فنجال قهوة) أو (كوبه شاي) وفي اليوم التالي اتخذ مكانه المعتاد فإذا بجانبه شاب يلف رأسه بكوفية ... هو بعينه الذي لم يتنازل حسين بالأمس أن يرد له التحية بمثلها ولا يزيد . ودار الحديث بينهما . وشرب حسين إبراهيم الشاي (وجوزة تمباك حمى) على حسابه فربطتها صداقة سريعة كالتى تنشأ عادة بين الحلاس في الحانات والمتديبات . وكان الشاب حاول التكتة بحادثه عن النساء وعشيقاته وغزواته المتكررة في المنازل فاعتقد حسين أنه (جدع) من فتية الحى الذين لا يهمهم شئ ولا يقف في سبيل تنفيذ رغباتهم مانع من الموانع .

وتكررت مقابلتهما كل ليلة . فتعرف حسين بجميع أصدقاء (عبده) وشهرته (حماية) وهو لقب يتخذه لنفسه دلالة على أنه لا يخضع لحكم البوليس المصرى استهزاء به . وتطرفت الصداقة إلى درجة أن حسين كان يصحب عبده في زيارته لأصدقائه في منازلهم ويجتهد ألا تفوته فرصة يجتمع فيها به .

وعندما دخل حسين منزل (عبده) لأول مرة ذهل كثيراً لأنه رآه على تفاهة أاثاته ، مزوداً بأصناف كثيرة من البضائع ، ورأى

فى غرفة (أثواب البفتة) - و (مقاطع الشاش) ومقاطف البن
وكميات كبيرة من السكر والصابون وأقراص الحبة الرومى والفلمنك
وعلب الحلوى والشكلاطة ، وعدداً وفيراً من الساعات وصفائح
الزيت الصغيرة ، ثم لاحظ أن كل واحد من أصدقاء عبده يخرج
من الزيارة حاملاً صنفاً واحداً من هذه البضائع المكسمة لا يتعداه
مهما تكررت زيارته فأم أحمد الدلالة تأخذ معها القماش وأبو النجا البقال
بجهة السيدة سكية يأخذ أصناف البقالة . أما الساعات فيأخذها شاب
من الدين يبيعون (إنشا للجوابات . فوازير . حكايات . أغاني
وروايات) يسافر بها إلا بلاد الريف فى أيام المواسم والموالد .

أخذت هذه المناظر والتجارب تمر أمام عينيه ولكن حسنين كان
صامتا لا يرضى أن يصرح لنفسه باعتقاده فى مهنة هذا الصديق الحديد
بل استمر صامتا متردداً . وحجته أنه لا يعنيه من هذا الأمر شيء .
وإنه على (بر خليص) إذ مادام أنه بعيد عن الشبهة . فلا يهمه إذا
كان (عبده) لصاً أم لا . ولذلك لم ينكص عن محادثة (عبده) فى
أصناف القطع الحديدية اللازمة لفتح الأبواب (إذ رآه يملك عدداً
وفيراً منها فأراه عبده الأصناف المختلفة ودله على أسمائها وكيفية
استعمالها وأخيراً أخبره عن الأشخاص الذين يبيعون له هذه الأشياء
كان حسنين يصفى إلى هذه التفاصيل بشغف وشوق وتنطبع ذكرى
الأحاديث فى ذهنه بقوة وتأثير .

وأخيراً لم يفته أن يلاحظ أن (عبده) ينحىء فى ناحية من الغرفة

صندوقاً صغيراً به { تذاكر صفراء } يستهلكها بسرعة ولاحظ أيضاً
أن أصناف البضائع تقل فتكثر التذاكر .

فإذا نفذ الكوكابين إمتلاء المنزل مرة أخرى بالبضائع !
النتيجة الطبيعية لمسلكه هذا أنه لم يدهش عندما سأله (عبده)
ذات مساء (هل تحضر معنا هذه الليلة ؟) ولم يكن هذا السؤال يخطر
على باله فصمت ثم (قال : لما نشوف) فتواعدا بالقهوة .
لم يدر نزاع كبير في نفس حسين ابراهيم وكانت حجته كحججه
السابقة أنه مادام سيذهب متفرجاً فلا خوف عليه .

فيذهب وهو في ملابسه العادية وكانت مأموريته
أن يقف بأول الطريق حتى ينتهي عبده ورفيق له من كسر باب محل
وسرقة ما به . وتم ذلك بكل سهولة ولأجل أن يكافئ (عبده)
الحفير على خدمته أعطاه قرص جبن فقبله (مادام أنه لم يسرقه هو
شخصياً) ثم كلفه أن يحمل الباقي من السكر والصابون إلى أبي النجا .
وفي طريقه إلى أبي النجا إنتهى به منطق كان يتعب رأسه قليلا
إلى أن يعرج على منزله ، فيملأ خزانته من السكر والصابون ويذهب
بالباقى إلى أبي النجا وهو يقول سرّاً (ابن الكلب ! هو دافع فيه
فلوس . مادام حاجة بلاش !) .

حدث بعد ذلك أن انتقل حسين ابراهيم إلى درك آخر تبع
قسم يبعد عن قسمه الأول . ولا بد لنا أن نقول هنا أنه أكثر أخيراً
من زيارته إلى عشيقته . وأطال في سهره وأسرف في شرب المسكر

حتى ركبته دين قليل دفعه كثيرا إلى التفكير . ولكن انتهى به الأمر إلى أن تقدم لرئيسه متراضاً يطلب أجازة يوم فيسمح له بها . وعندما أقبل منتصف الليل سار حسنين إبراهيم متسللاً حذراً إلى أن وصل إلى شارعهِ القديم الذي قضى فيه أياماً طويلة فعرفه حق المعرفة وحفظه عن ظهر قلب ، فعلم أقوى أفعاله وأضعفها ، وأوقات غفلة سكانه ويقظتهم . فعرج في حارة صغيرة ليس بها إلا مخزن واحد يعلم عن صاحبه حداثة عهده بالتجارة . وأخرج من جيبه طفاشة من الحديد (ولو بحثت عن الوقت الذي اشترى فيه الطفاشة علمت أنه اشتراها منذ أن ابتداء يعاود علاقته مع عشيقته) وبحركة بسيطة فتح باب المخزن .

وسار إلى منزله وجيبه مبلل بالعرق . وعندما أتى الصباح استطاع أن يقبض ثمن ما سرق من أم أحمد وأبي النجا ، وإن غبن في السعر لحداثة عهده ولخوفه في أول الأمر ولأنه لم يصبح بعد (قديم في الكار) وحدث بعد ذلك أنه كلما كان حسنين إبراهيم في أجازة وقعت سرقة من سلسلة سرقات متشابهة متتالية في هذا الشارع المظلمين الهادئ ومنذ ذلك الحين انقطع حسنين إبراهيم إذا كان في (دركه) عن تنظيف غطاء رأسه وقتل شاربيه .

فتوة ديجتري

قهوة ديمتري

هي غير خاصة ببلد دون بلد ، هي - إن شئت - (ماركة)
 لقهوا عديدة منتشرة بريف مصر شمالها وجنوبها . في كل بلد صغير
 أو قرية كبيرة . إذ كلها تتشابه في أن الذي يديرها رجل هو في
 بلد - ديمتري وفي أخرى - مخالي - ولا يخرج اسمه عن أن يكون
 واحدا من هذه الأسماء - وما يشبهها من تودري وخريستو أو يني
 وخرمالبو ..

هي قهوا تحتل مكانها في هدوء وسلم وتستمر في نمائها من محافظة
 على التقاليد التي أوجدتها منذ نشأتها الأولى . معتمدة على وسط واحد
 لا تحيد عنه حتى تصبح مع الزمن خصيصة من خصائص هذا الوسط

وظاهرة كبيرة الأثر في حياة الشعب المختلفة النواحي قد تعادل أهميتها
أى ظاهرة أخرى .

وكذلك تجد كلمتا (قهوة ديمتري) مجالا في حديث الناس
وحياتهم كما تلقاه ألفاظه قصيرة تؤدى معاني جمّة كالنقطة والمركز
والحطة وعند العمدة وأخيراً الكفر (١)

وفي كل بلد تمتاز (قهوة ديمتري) عن بقية القهاوى بنظافة
مقاعدھا ومناضلھا، وبهدوء جوھا وخلوھ من الضجيج وألفاظ السباب
والمضاربات والمعارك . وبتكبرھا عن تقديم (الجوزة) البلدية إلى
زبائنها مستعيضة عنها (بالشيشة) التي يعتبرھا الرأى العام أرق من
(الجوزة) تحت تأثير اندفاع الجمهور في الزمن الماضي في التشبه
بعادات حكام الأتراك ، ومنها تدخين (الشبق) . فلم يستمر على
استخدام (الجوزة) وهى مصرية صميمة - سوى الطبقة الدنيا ..
ولعل السبب في نجاح قهوة ديمتري هى أن الذى يديرھا رجل
يونانى (ولكنه موصوف بالرومى لدى أهالى البلد تحقيراً لجنسية هذا
المهاجر الغريب) .

تجربى في دمه مهنة إدارة القهاوى بالوراثة من أب عن جد،
والا فلماذا لا يستطيع محمود أو على أو حسن جيرانه الوطنيون تقليده .
فها هم يرونه قد حجز المكان الذى يعد فيه طلبات الجلّاس بستان خشبى
رفيق بينما هم لا يزالون معتمدين على استعمال (الغلاية) ، ذلك

(١) لفظ يطلق فى الريف على مكان البقاء الرسمى .

البناء الحجري الذي يضعونه في ركن من أركان القهوة دون ستر
والذي يعلو فوقه (البكرج) الأصفر الكبير المعد لقلل الماء
للقهوة والشاي والزنجبيل فيرى الخالس إليه الماء القلر يجاور البكارج
ويرى (المعلم) يغسل فنجاله في ماء أسود عكر ثم يمسح يديه في
في جلبابه القلر ، . ثم يسمع الخادم ينادى بطلبات الزبائن في لهجة
منكرة وألفاظ عامية مبتدلة من (واحد أزوزه . واحد جتربيل
واحد تمباك حمى .)

ثم يرى زبوناً بجانبه لم يفلح في (شد الحوزة) فينادى الخادم
فينتفض فيها شهيقاً قوياً وينتهي من مأموريته بالبصق في الأرض مرة
ومرتين ...

وديمترى يستعمل كراسى مريحة بينما هم يصرون على هذه الدكك
المتربة والمقاعد الخشبية ذات القش المحدولة صفائره الخضراء والبيضاء
ولكن المهم فوق هذا أن ديمترى يقدم لزبائنه أنواع الخمر
ويطبخ لهم دون غيره أكلا نظيفاً يتناولونه في الظهر والعشاء .
وليس هناك من قهوة غيرها يجد فيها الزبون (فيشا) للعب
البوكر مع الاستعداد المطلوب من ورق أحمر وأزرق يتبادلها كلما
تأثر الورق بالاستعمال أو كلما أراد تغيير مجرى حظه .

لكل هذه المميزات أوجدت (قهوة ديمترى) لنفسها مركزاً
يكاد يكون شبيهاً بالرسمي لأن موظفي البلد لا يجلبون لأنفسهم متديا
يقتلون فيه الوقت في النهار وجانب من الليل ويكون في الوقت نفسه

لاثقابهم سوى (قهوة ديمتري) فقد تجدد حضرة العمدة ينصت لشكاوى الناس وهو في مقعده المعتاد بالقهوة، وترى وجوها لا تألفها إلا من وراء مكاتب وأكوام الورق والدوسيات بل تسمع نفس الحديث الذى يندور بين الموظفين فى محل عملهم وهو لا يخرج عن ترديد أخبار العلوات والتنقلات وآخر أخبار فضائح الأصدقاء .

إذن هى فى الواقع محل مختار للموظفين يمثل أوقات راحتهم وسمرهم كما يمثل الديوان وقت عملهم ...

فحضرة العمدة فى عمامته التى تغطى نصف جبهته وبطنه البارز وعينيه الضعيفتين ينظر إلى كاتبه فى جلبابه وقلمه الموضوع جانب أذنه ويقول له دون أن يدير رأسه (لما يعوزنى حد أنا فى قهوة ديمتري)

وإذا وصلت لمعاون البوليس إشارة تلفونية فإن عسكري المراسلة لا يجهد نفسه فى البحث عنه بل يتجه إلى قهوة ديمتري فيلقاه مجتمعاً بأصدقائه حول زجاجة جمعه وأطباق المزة. فإذا تقدم إليه بالرسالة قطب معاون جبينه واستعاذ بالله ثم خطفها منه حانقا . فإذا قرأها ودها إليه قائلا فى لهجة ملؤها الاستهتار (طيب روح .. بكرة) ١ .

وإذا انتقل إلى البلد موظف أعزب لا عنا وظيفته التى تجعله لا يتوطن فى مكان واحد وتجبره على تغيير أصدقاء واصطناع آخرين مرة بعد أخرى ، مشغولا مثقلا فى إعداد مسكنه الحديد وترتيب فراشه وقد تملكته حيرة ليست بالهينة ، كيف يجد لنفسه أكلا يسد به عن نفسه غائلة الجوع وهو لا يستطيع أن (يسلق بيضتين) كفاه إخوانه

الموظفون مؤونة هذا الجهد وقالوا له (عند ديمترى) ، فيذهب وقد يجلس فى مقعد للموظف الذى حل محله بالضبط وبذلك يكون زبائن الخواجة ديمترى وظائف لأشخاص ، فيهم مثلاً معاون الإدارة ومعاون البوليس ، وطبيب المركز ومساعد مهندس الرى . ولا يهيم به بعد ذلك إذا كان أحدهم زكى أفندى أو عمر أفندى .

ويجد زبائن ديمترى عنده لأنفسهم حرية أوسع مما يلقاها القاهرى مثلاً فى قهوته المعتادة ، حيث لا مجال هناك للتعرف بكل من يرتاد القهوة مثله . ولعل هذا راجع إلى أن قهوة ديمترى صغيرة الحجم عدد زبائنها قليل ، بل وتربطهم معرفة خارجية مستقلة عنها . ولذلك نجد أحدهم لا يتحرج إذا كان بمقعده فى جوار الباب أن يحدث شخصاً فى آخر القهوة بصوت مرتفع يسمعه كل الحاضرين .

ويرتقى ديمترى عن أن يكون (جرسونا) بسيطاً كأي جرسون آخر فى مصر ، ويصبح نديماً لزبائنه يهزون بلمهجه الرومية وبجناسيته تعصبا للأتراك ، ثم لا يتحرجون من أن يودعوه بعض أسرارهم ، وأن يقترض أحدهم منه إذا خسر (صولده) بأجمعه فى لعب البوكر إذا عثر به حظه .

إذن علمت بعد هذا كيف يستطيع ديمترى أن يجد رزقه فى البلد . إن الأهالى كالطفل يبدل النقود فى دمية يلهو بها ويتحكم فى حرركاتها ويظهر قوة ساعده واستبداد ارادته بتهميش رأسها . كذلك هم فى حاجة إلى شخص يهزون به ولا يستطيع أن يهزأ بهم فتشعر

أنفسهم بأنها تتمتع فعلا بالمميزات الخليفة بجنسيتهما والخاصة بطبقتهما
الإجماعية

تقع قهوة ديمتری التي سأأخذها نموذجا لهذه القهاوى المتشابهة
فى بلد صغير من بلاد مديرية الغربية يضمها النيل إلى صدره الرحيب
غير حاقدا على هؤلاء الناس الذين يشقون لخته ويمتطون ظهره بفلكهم سعياً
إلى الأسواق فى المدن والقرى . ويفسلون أجسادهم ويزيلون صدأهم
ثم بعد ذلك يهملون عبادته التي طالما ألفها من أجدادهم الأقدمين .
وديمتری طبعاً رجل يونانى لا ندرى متى جاء إلى مصر أو لماذا
اختار هذا البلد دون سواه ، والظاهر أن هؤلاء الناس قدرة
على التشبث بمكانهم فى بلاد غربتهم لا يبرحون .

وهو رجل طيب القلب ، غير كبير المطامع به شىء من الغباوة
المزوجة بطيبة ، لا يزال رغم إقامته الطويلة فى مصر ينطق بكلماته
فى لهجة رومية ، فإذا أنصت له زبائنه استغرقوا فى الضحك وطلبوا
منه إعادة بعض كلمات يستعصى عليه نطقها ...

وديمتری قد أقبل على الشيخوخة فثقلت حركاته وقل نشاطه ،
ولذلك فإن زوجته تساعد فى أعمال لا تنتقل بين الزبائن بل تظل
مخفية وراء الستار الخشبي منهمكة فى إعداد (المربو والمبولجى)
فإذا مال ديمتری على الخالس يسأله ما طلبه أجابه (واحد مربو)
فإنه ينادى بهذه الكلمة بصوت هادىء وبلهجة تختلف عن لهجات
هؤلاء الجرسونات الذين يصرخون بطلبات الجلاس بكلمات يونانية

طويلة ذات وقع رنان ... أما ديمتري فإدام ينادى زوجته فما حاجته للصريخ والأمر ؟ هو يكلمها كأنهما في مترهما كما يحدث الزوج زوجته في شئونهما الخاصة .

.

إذا أقبل (المغرب) تبتدىء الزبائن فى الاتجاه لقهوة ديمتري وأول من يبكر فى الذهاب حضرة العمدة هربا من الانصات لشكاوى النساء وقضايا مضارباتهن . وكل واحدة تحلف برأسه وتهن بتقويل رأس غريمتهما ...

إذا رآه ديمتري لم يسأله ما طلبه . بل ينطق بلفظ رومى فى لهجته المملوءة بالطيبة ثم يعود بعد هنية حاملا (شيشة) بللورية يلدخن منها العمدة فيتوه فى أفكاره وهو ينصت لقرقرة الماء ثم ينفث الدخان من فمه ويحدق فى سمائه شاعراً أنه يزيج بذلك عن صدره عبثاً ثقيلًا

ثم يتلوه معاون الإدارة فيتحنى ناحية سرعان ما يجتمع فيها معاون البوليس وطبيب المركز الذى يطلب عشاءه مبكراً ولا يرضى بغير (البيض المقل) وقليل من اللبن . (وإلا فما قيمة نصائحه لجميع مرضاه - اتعش عشا خفيف ! فاهم !) - ثم يأتى حسن أفندى مكاتب إحدى الجرائد يتصيد أخبار الموالد والأفراح والمآتم ثم يقبل حسن سلامة .

وحسن سلامة وجل متوسط القامة قد بكرت ناصيته - التى لا يحجبها طربوشه المائل إلى الوراء فوق قمة رأسه - فى المشيب . وله

عينان (عسلينان) تبعثان إليك معاني كثيرة من الطيبة وهدوء النفس يعكروه في بعض الأحوال . ألم ظاهر إذا ضاقت به الحالة المالية . فهو يتاجر في الملابس الداخلية . ثم يقوم لجمهور الموظفين والأهالي بقضاء جميع حاجاتهم التي لا توجد إلا في طنطا والأسكندرية ، فيسافر لأحدهما كل يوم في مقابل أن يقتضى منهم شيئاً زهيداً فوق الثمن ، ولذا فإن لحسن سلامة اشترائك في السكة الحديد ومن هنا كان معروفاً لدى أهالي البلد بلفظ واحد هو (الأبونية ..) فيسأل أحدهم الآخر (هل رأيت الأبونية ؟) . وهو فوق هذا محبوب لايسبب لنفسه عند أحد الناس كراهية أو ضعيفة .

إذا وصل (الأبونية) إلى القهوة (ديمترى) سلم على الجميع بصوت مرتفع فأجابوه بتحية باشة وقد يسمع من نواح كثيرة (أهلاً وسهلاً ياأبو على ١)

ولا يستقر به المقام حتى يأتي له الخواجة ديمترى بالورق فيجلس أمامه رجل اعتاد أن يلعب معه كل ليلة . ويتحفظ كلاهما للعب . ودمما نشط بعض الحاضرين إلى مشاركتها في لعبها فينضم لها اثنان آخران مشهوران بمقدرتهما في هذه اللعبة حتى يكون اللاعب (حامياً) والنضال عنيفا .

يجلس الأربعة حول منضدة في وسط القهوة وتحت (الكلوب) الوحيد بها . ثم يبتدىء سلامة في تقطيع الورق بحركة سريعة تدل على خبرة تامة ثم (يفرقه) أربعة أربعة وهو يمازح من معه .

وفى أول الأمر يجذب (الأبونية) بعض الحاضرين إلى مشاهدة اللعب فينقلون مقاعدهم - واره وكلهم يتحزون ضد خصمه ، فإذا تقدم اللعب وعلا صوت (الأبونية) من (انزل بالعشرة ... هات الدوه .. ياعين عليك ولد ابن حلال ... بصرة .) جذب معظم الحاضرين بالقهوة حتى تصبح بجلاسها متركزة على شخصية (الأبونية) الذى يقود أبصار الحاضرين . وهم يتتبعون بشوق وشغف حركات إنسان عينيه فى دهشته العصبية وقد أُنعلته حدة اللعب وتلور على شفاهم ابتسامة خفيفة لا ينتبهون لها ولا تفارقهم طول الوقت ويختفى عندئذ لدى كل شخص متاعبه وآلامه .

بل وآماله وتنحصر حياته فى الوقت الراهن بقضيه فى لذة ونسيان . إذا ساعد الحظ (الأبونية) انقلب بالتأنيب والتبكيت على خصمه مكيلا له الاستزاء والاحتقار (انت تعرف تلعب . مين اللى علمك . روح اتعلم ياشيخ .. ما بقاش الا نلاعب عيال ..)

والفاظ الاستزاء هذه ضرورية فى لعب الشرقيين كالتوابل فى طعامهم لا يحلو لهم بدونها ..

وأنت إذا دخلت إحدى المنتديات الكبرى بالقاهرة مثلا . وجدت معارك كبرى تلور داخلها فى صفيين من الناس يجلس أحدهما قبل الآخر .. يلعبان (الطاولة) فكأن بينها خصومة شديدة لا يكتفون بضجيجهم بل تحتم عليهم أصول اللعبة (أن ينقلوا الحجر) بقوة . وقد نجد أحدهم يرفع ذراعه إلى أعلى ثم يضع الحجر فى مكانه كأنه يلقى

مسيارا . وإذا سرت بجانب صف منها سمعت ألفاظ الاستهزاء من واحد ووجدت وجوما من آخر بحسب ما إذا كان غالبا أو مغلوبا . يظل (الأبونية) في مرحة ونشاطه وهو يكيّل الاستهزاء لخصمه حتى يجد نفسه فجأة أمام (الأرض) وقد أتى عليه الدور في اللعب وليس في يده إلا ورقتان سبعة وعشرة... عند ذلك يترى وينقل إحدى الورقتين مكان الأخرى عدة مرات ويكد ذهنه ليتذكر كم ورقة من العشرات أو السبعات (نزلت) في الأرض .

ويرتعى إنسان عينه في رعشة عصبية حائرة ويأخذ الوجوم ويقلب نظره في وجوه الحاضرين كأنه يستطلع في نظرهم قدره المحتوم .. سبعة أو عشرة ؟ هذه هي المعضلة الهائلة التي يروح تحتها فكر (الأبونية) . ولا شك أن دقائق قلبه تزداد وأن الدم يتصاعد إلى رأسه مندفعاً ... ذلك لأنه لا يلعب لقضاء الوقت بل اشباعاً لشهوة التغلب على الغير . ثم هو لا يرضى لنفسه بالانهزام بعد أن طبقت شهرته أرجاء البلد . ولا يقبل أن يدور الحديث في القهوة يومين متتاليين بذكر هزيمته المنكرة

وبحركة وجلة مستريية يضع (الأبونية) السبعة على المنضدة ، وعندما يقفز خصمه من مقعده ويقبل ورقة في يده بصوت مرتفع ثم يلقيها على المنضدة قائلاً (بصرة !) فينقلب الموقف . يصمت الأبونية ويصفر وجهه وتقل قيمة ألعا به من الوجهة الفنية تحت تأثير الانهزام ويبتدىء خصمه في إسماعه التبكيت

والاستهزاء قائلاً (فالبح جدا ومشطر من الصبح
أبره أستنى لما تغلب .. العب العب واحنا نشوف !!)

و (أبو على) يعد رجلاً طيباً مجداً في عمله لا يعرف رياضة واحدة
ولو أن أحداً من الناس قال له : « إنك لا تتراض كل ليلة بلعب
(الورق) .. لما صدقه ، ولكن هذه رياضة تفيده فتجدد دمه وتنسيه
همومه وتريح عقله وهو يقضى ، إذا كان مستريح البال والحظ ،
وقتا طويلاً في اللعب وقد يلعب حسن سلامة عشر (عشرات) في
ليلة واحدة يخرج منها كلها غالباً لجميع المتطوعين لمقارنته !

يصل بائع الجرائد فتتلقفها الأيدي . وهناك زبائن خاصة لها
غرام شديد في قراءة الجرائد وكل كلمه فيها ، فإذا قرأ أحدهم في
جريدته أمسك بتلابيب زميل له سىء الخلف فيسرد عليه كل الأخبار
التي قرأها مع أن هذا الزميل البائس يكون قرأها مثله وعلم بها ولا
حاجة لديه في الاستماع لها . ولكنه لا يجد غرجاً من هذا الموقف الحرج
سوى أن يسرد لغريمه بعد أن ينتهى من قصصه وأخباره كل المعلومات
التي نسيها وقد يكرر ما قاله زميله وبذلك يكيل له بكيله .

وقد يتركان القهوة وجلاسها ويهتمان في حل لغز من الألغاز التي
هى بلاء الجرائد الأسبوعية هذه الأيام . فيقرأ أحدهم (ما هو اسم
ثلاثي يدل على صفة من صفات العظماء ، فإذا قرأته مقلوباً فهو من
مستلزمات الطعام)

فيخرج من جيبه قلماً رصاصاً - وهؤلاء الناس يحرصون على أقلامهم
استعداداً لطوارئ الألغاز ! وعلى هامش الجريدة يكتب (١ - ٢ -
٣) ثم يتريث قليلاً ويقول - قبل تبقى لن ... فيكتب تحت الأرقام
(ن . ب . ل . ا) .

ثم يستمر (ثانيه وأوله وثالثه فعل بمعنى أرى بسرعة) فيقول
(نبل ؟) ويكرر ما حسب الأوزان المختلفة تارة بالضم وأخرى بالجرم
فلا تنفع معه . فينتقل إلى ناحية أخرى من هامش الجريدة ويعاود
كتابة الأرقام من جديد ويكتب (ش . ر . ف) ويقول (شرف) !

وهو في انهماكه نسي أن زميله يكذ ذهنه بدوره في اكتشاف هذا
اللعز ويكون الحظ قد ساعده فيمسك ذراع الآخر وبصوت يكاد يبع
يقول (آه ! حلم يبتى ملح وملح ...) ثم يرمى القلم ويريح طربوشه
عن رأسه ويميل في مقعده بينما يقلب زميله في صحائف الجريدة محاولاً
بذلك إخفاء غيبته وقد امتلكه سرور وخيلاء وشعور بلذة الانتصار ..

(جريدة السياسة ١٢/٢٢/١٩٢٦ ص ٣)

مَنْ المَجْنُون؟

من المجنون ؟

نشأ محسن أفندي بن عبد المطلب بين عائلة شهيرة بذكاء أفرادها وحدة أذهانهم - وفي الرثت نفسه - بقصر أعمارهم ، فهم لا يتجاوزون تمام العقد الثالث حتى تذوب أجسادهم فجأة تحت تأثير خفى وبغير مرض معروف .

وكان يعيش وحيدا مع أمه العجوز ومعمدا على إيراد صغير يمكنه - في جهده وتقديره - من الاستمرار في دراسته بمدرسة الهندسة ومحسن شاب قارب الخامسة والعشرين طويل القامة ، ضامر البطن له حجة مرتفعة فوقها شعر يضرب إلى الصفرة طويل الأنف دقيقةا .

أما عيناه فواسعتان ، شديدة السواد والبريق لها حركة سريعة تنبث منهما كهرباء غريبة . وقد تختلج عينه في بعض الأوقات إختلاجاً عصبياً . وهذا في أوقات غضبه وعندما تملكه حيرة تضايقه ولعله كان أكثر فرد في عائلته ذكاء ، وأشدهم توقفاً فهو خفيف الروح ، حلو النكتة ، شهى الحديث ، يعلم عنه كل زملائه مهارته في حل المسائل العويصة التي تستعصى عليهم ، دون أن يكدر ذهنه من أجلها أو يتعمق في التفكير . إذا رأيته لم تلبث أن تعترف بأن هناك قوة خفية توزع المواهب والعقول . وأن الشخص يولد فلما يجد نفسه معلق الذهن أو شعله من بين نار وليس هو — على الحالتين — الذي أدار المفتاح أو ألهم الكبريت ، وليس في مقدوره أن يفتح سجنه أو يطلق ذكاه .

. . .

بعد أن قال محسن شهادته بتفوق عين في وظيفة بدمياط . وعندما حل بها وجد نفسه غريباً لا يعرف أحداً . ولكن سرعان ما التفت حوله القلوب فكثرت أصدقاؤه وإن بقي له شعوره بأنه لم يخلق ليعيش بدمياط وأن موطنه القاهرة ولا يرضى بغيرها بدلاً .

وعندما أقبل شتاء دمياط برده القارس وأمطاره الغزيرة ، لم يقو جسم محسن على تحمل رطوبة الجو . فأصيب بحمى التيفوس فأقعده الفراش وقتاً طويلاً انتابه فيه هذيان وغيوبة طويلة ولكن شبابه تغلب على المرض فقام . فإذا هو شخص آخر غير ما كان . إذ قام نحيفاً مهزولاً يكاد ينكفيء إذا سار من شدة ضعفه . وترتجف ركبته

وترتعش يده . وسواد عينيه ينطق فأصبحنا غائرتين وجفت شفاته
واصفر وجهه وانطبق شدقه

وأصبح محسن - رغم أنه كان يسترد قواه شيئا فشيئا - شخصا
سريع الملل لا يقوى على الانصات للحديث يطول وتفزع أقل ضجة
وتثير غضبه وتأفقه

وكثيرا ما أطال التحديق في الجو وهو تائه الذهن مشرده ثم
ينفض ويتأوه بأهة يودعها تأفقه وتبرمه من الحياة .. ثم يصبح فجأة -
وبدون سبب واضح - شخصا ثنائرا كثير الضحك مرتفع الصوت
على الضحكات .

ولعل أغرب ظاهرة بدت فيه أنه كان إذا تحدث ينتقل من
موضوع إلى آخر دون ترابط أو سبب ودون أن يشعر هو بهذا
الانتقال .

وأخلت هذه العوارض تزداد حدة حتى خطر لإخوانه الموظفين
خاطر كتموه ولم يستطيعوا التصريح به لحبهم له وإشفاقهم عليه
وأملأ منهم أن يزول ما به بعد أن يسترد قواه وعافيته .

ولكن محسن تطرف في أعماله وأصبحت له تصرفات شاذة .

إذ لما أتى وقت مساحة الأرض - وكان الزمن صيفا - رأى أنه من
السخف أن يشتغل بالنهار في هذا الحر الشديد ، وعزم على أن يكون
عمله بالليل - فكان إذا أتى قرية أمر أهلها فخرج له كل من يملك

فانوسا وساروا معه وهو يمتطي صهوة حماره يغنى تارة ثم يخطب فيهم تارة أخرى .

ودعى مرة إلى الشهادة أمام المحكمة في حادثة قتل وقعت أمامه فرأى الجمهور يدفعه بالمنالك فوقف قبالة القضاة وأمام المحامين يسألونه أسئلة بدت له تافهة فتضايق وقطب جبينه . وأكد للمحكمة أنه رأى القاتل يضرب ، ولشد ما كانت دهشته عندما سمع القاضي ينطق بالبراءة . وعلم بعد ذلك أن القرار بنى على أن (حيث انه لم يقيم على التهمة دليل راجح فأقوال الشاهد الأول (وهو محسن) متضاربة مضطربة وتعارضت مع أقوال الشاهد الثاني . . . ولذلك عندما أوى إلى منزله لم ينم وفكر طويلا في هذه الحالة السيئة . وفي الصباح كان قد أتم خطابا مكونا من عشرين صفحة أوله (تقرير مرفوع من محسن عبد المطلب إلى معالي وزير الحقانية بمشروع تعديل نصوص قانون العقوبات) وكان مما فكر فيه أن تكون الجلسات كلها سرية لأن الجمهور يحدث ضجة تشوش على القضاة وتثير أعصابهم دون أن يشعروا وتجعل أحكامهم مضطربة من تأثير الجو المملوء بالضجيج الذي يعيشون فيه وأن يمنع المحامون من عملهم لأنهم يقلبون الحقائق بألفاظهم وخطبهم الفارغة . وأن القضية إذا كان بها محام فلا بد أن يحترس القاضي منه ويراقبه ليعلم محاولاته في التغرير به

وبعد أسبوع واحد هو يمر في بعض الأراضي المملوكة لوزارة الزراعة والأوقاف رأى النبات مريضا والاهمال ضاربا أطنابه فكاد

يمسك بتلابيب أحد الفلاحين يضربه . وسهر ليلة أخرى وفي الصباح كان قد أتم (تقرير مرفوع من ... إلى صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء بشأن إلغاء وزارتي الزراعة والأوقاف وإضافة عملهما إلى وزارة الحربية) .

وكتب (مذكرة ابضاحيه) قال فيها ان في مظاهر الدولة المصرية متناقضات كثيرة . والجيش المصرى كافة من جنود وضباط لاعمل له لأن الغرض من الجيش الحرب ، وحيث اننا لن نحارب أحدا فلا لزوم للجيش ولا يبقى بعد ذلك مبرر لوجودهم وصرف مرتباتهم الطائلة وأكلهم مجاناً من خزينة الدولة ، ولذلك فإنه يجب تشغيلهم في الأراضي البور وأراضى وزارتي الأوقاف والزراعة .

وقال في فوائد هذا المشروع إن العزبة القذرة ستصبح معسكرا نظيفاً وأن الخولى سيكون يوز باشى أنيقاً ، وتنقلب المدافع بسهولة إلى محاريث ، وتصدر الأوامر إلى الفلاحين بالبورى من الخولى . وبذلك يسير العمل بانتظام ولا يهمل الفلاحون من الجنود في عملهم لأن القانون العسكرى يطبق عليهم .

وعلى ذلك كانت المادة الأولى في القانون هي :

المادة الأولى . تهدم جميع العزب الكائنة في مصر سواء بالوجه البحرى أو القبلى لقذارتها وقلة الضوء فيها وكثرة البق والبراغيث ، وتهدم جميع التكنات العسكرية في العاصمة والمدن وتنقل الحجارة والدبش

إلى أراضي وزارتي الزراعة والأوقاف ويبنى في كل ألف فدان ثكنة واحدة . . .

المادة الثانية - يلغى القانون العسكرى الحالى ويستعاض عن جرائم التسليم للعلو والإهمال بحسن الضبط والربط بجرائم التأخير في الحرث والرى والإهمال في تنقية الدودة . .

المادة الثالثة - يكون في كل ثكنة برج عال يقف فيه اليوزباشى الخولى ليصدر أوامره بالبورى إلى جماعة الجنود المنتشرين الأرض . .
ثم لما رأى أنه صاحب مشروعات كبيرين قرر أنه يتم اقتراحاته فسر ليلة أخرى وفي الصباح كان قد أنتم « تقرير مرفوع إلى صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء بإلغاء المحاكم الشرعية وإضافة أعمالها إلى وزارة المعارف)

وملخص اقتراحه أنه يجب على كل رجل أعزب ، أو امرأة عزباء أن تقدم إقرارا بذلك إلى وزارة المعارف التى تعقد في كل ستة شهور امتحانا للذكور وآخر للنساء فإذا ظهرت النتيجة أجبر الأول في الناجحين على تزوج الأولى من الناجحات والثاني من الثانية وهكذا ..

وقال إن من فوائد هذا المشروع القضاء الأخير على طائفة (الخطابات) وأن الحظ سيخرج بتانا عن الزواج الذى يجب أن نصونه عن التلاعب الحاصل الآن . وأن التزاوج سيتم بين القرناء ولا يغيب أحد في نصيبه فتقل الشكوى ، وينتج نسل منتظم يعتمد على وراثة صحيحة .

ولكنه بعد قليل لاحظ أن مشروعه ناقص فأرسل إلى رئيس الوزراء بخطاب يكمل النقص وأخبره أن يجيز عقد ملحق للساقطين . وأن الذين يسقطون في الملحق يوضعون تحت المراقبة ولا يسمح لهم بالسهر بعد السابعة مساء (هذه هي الطائفة التي يجب على الحكومة مراقبتها لأنها هي التي تعيث فساداً في المنازل وتحرض النساء على الفجور وليست هي طائفة المنشردين الذين تهتم بهم الحكومة على حقارة شأنهم وتفاهة قيمتهم فتسخر لهم العمد والبوليس ليراقبهم في حركاتهم وسكناتهم)

وأخيراً كاد محسن أن ينقطع عن عمله . وسر لتغيبه هذا جميع الموظفين لأنهم وإن كانوا يشفقون عليه فإنهم أصبحوا يخافونه ويرتعبون من نظراته وحركاته . وكل الناس ترتعب من المجنون ولو كان أهلاً للناس وأطيبهم قلباً .

وكان محسن يمتطي جواداً له ويسير في الأطلان ، وسواء ما كان مملوكاً منها للحكومة أو للأفراد ، ويأمر الفلاحين الذين أصبحوا لا يهتمون به ولا بأوامره بأن يعتنوا بالأرض ، وكان من تأثير ذلك أنه أصبح يعتقد أنه هو المالك لهذه الأرض الشاسعة بل أنه يمتاز على هذا المالك المتغيب بالقاهرة والذي لا يرى أملاكه إلا مرة واحدة في عمره ، بل بماذا يفترق هو عن المالك ؟ إنه يتمتع نفسه بهواء الأرض ويسير فيها ويتعهدا وكل شخص يستطيع أن يكون أكبر مالك في العالم إذا ارتفع عن سخافات الناس وترهاتهم في اغتصاب الأرض

ورأى أن الأرض كلها إنما خلقت ليمتع بها . وكل شخص يستطيع أن يتمتع بها ولا يمنعه من ذلك قانون سخيـف ورثناه عن جدودنا السارقين المغنصبين ...

ثم تملكه قلق شديد . ماذا يفعل بهذه الأطيـان كلها ؟ .. وأخيرا قرر أن يهبها إلى طلبة مدرسة الهندسة لأنهم أحق الناس بتفهم مقاييس الأرض واتساعها . فكتب خطابا إلى ناظر المدرسة يخبره فيه بأنه عزم على أن يهب المدرسة كل أطيـانه (البالغ قدرها ألف فدان بما فيها من المنازل والعزب والمـازن والاصطبلات والأجـران والمحاريث والطلـمبات والمواشي من كافة أصنافها)

ولم ينتظر ردآ . وبعد أسبوع واحد خطرت له هذه الفكرة من جديد لأنه نسي كتابة الخطاب الأول ونسى أنه فكر فيها من قبل . والغريب أن خطابه الثاني كان صورة تنطبق على خطابه الأول . كلمة أمام كلمة . وسطراً بـسطر .

وكان بعد ذلك يرسل في كل أسبوع خطابا بهذا المعنى إلى ناظر المدرسة .

— — —

لم يبق أمل في شفائه . ولم يبق أمام رؤسائه إلا أن يخبروا الوزارة في القاهرة فصـرحت له بأجازة مرضية طويلة ، ، وأشارت بإرساله إلى مستشفى المحاذيب (بالأورليك نمرة ...) ولما كلف رئيسه أحد

الموظفين بتبليغه هذا القرار امتنع ، وأبى كل موظف آخر أن يفتح
محسن في هذا الموضوع ... من يجرؤ أن يذكر له سيرة مستشفي
المحاذيب ؟

وأخذ محسن يز داد في (تنكيته) مع الموظفين وبمازحهم ويصحب
كل كلمة بلطمة منه على كتف محدثه ...
وكان قرار الجميع أن تنفيذ أمر الوزارة أصبح لا مفر منه ،
بل يجب أن ينفذ بسرعة ..

وانتهز رئيسه (الذى كان لا يطمئن على نفسه طالما صوت محسن
المرتفع يرن في أذنيه) فرصة غيابه وجمع إخوانه معه وتشاوروا
في الأمر وليثوا منعقدين ساعات طويلة قرروا بعدها أمراً وخرجوا
وابتسامة صفراء لعينة لا يبعثها إلا الخوف تدور على شفاههم .

وفي اليوم التالي عندما جاء محسن طلبه رئيسه ، فاما دخل عنده أجلسه
على مقعد وقال له (لأنى أعلم أنك طيب القلب وتشفق على المساكين
وأنا قررت أن أكلفك بأمورية دقيقة وأرجو منك أن تكتمها ولا
تذكرها لأحد كان !

هذه الأمورية هى أن زميلك المسكين داود أفندى أصيب بنوع
من المستريا . وقد كلفتنا الوزارة أن نرسله إلى مصر حتى يتسلمه
مستشفى المحاذيب . ولكنى رأيت من عدم الموق أن نفتح في الموضوع
صرامة وعزمت على أن أرجو منك لأجل خاطره وصداقتك له -
أن تصحبه معك إلى مصر وفي اللحظة ستجد عمال المستشفى في انتظاره ..)

قطب محسن - وسعل سعالاً خفيفاً وظهر التردد في نظره
فلاحتلجت عينه ثم طفق يسأل رئيسه (وكانت يد الرئيس ترتعش
أسئلة كثيرة .

- لم ألاحظ على داود أفندى شيئاً ؟

- هل جنونه هادى ؟

- وماذا أفعل لو هاج منى في الطريق ؟

ثم أصابه نوع من الدهول وكأنه يذكر أموراً بعيدة في الماضي
وهذا ما كان يدور في ذهنه فعلاً فإنه أخذ يجهد نفسه في تذكر حوادث
حصلت من داود أفندى . فتذكر أنه ذات يوم أوقف عمله وارتبك
وسأل جميع الموظفين عن نظارته مع أنها فوق أنفه وعند ذلك وضع
محسن ذراعه على حافة مكتب رئيسه وأسند رأسه عليها واندفع في
ضحكة عالية طويلة .. وكان الرئيس يرتعش وكاد يخرج من الغرفة
لأن أعصابه اضطربت فجأة لدى سماعه هذه الضحكة .

ولما عاد محسن إلى مقعده ظهر الجهد ومظاهر الاهتمام على وجهه
وحركاته . فكانت أوامره (للحاجب) مملوءة قسوة وشدة .
وأكثر من تعهد ربطة رقبته وطربوشه . ثم يرسل نظرات جانبية
طويلة وللمع عيناها بها ، إلى حيث يجلس داود أفندى . وأخذ يراقبه
كيف يحرك رجله حركات صغيرة كمن يضبط نغماً موسيقياً يغنيه
سراً . ثم انتقل بجانبه فجأة ووضع يده على كتفه وقال له في لهجة
مملوءة بالطينية .

— هل تحضر معى للفسحة بمصر ؟

— لماذا ؟ وما دخلك أنت فى ذلك ؟

فقال محسن وقد ظهر على وجهه الجهد الذى يبذله ليقتن (بلغه) وهو مجهود من يدارى عن المحنون اعتقاد محدثه فى جنونه. وهو ليس بالأمر السهل الهين فى نظر محسن .

— لا لشيء سوى أننى أعلم أنك لم تزر مصر منذ مدة طويلة

وأننى مسافر هناك فأحببت أن نكون سويا ، فلماذا تغضب !

فزجر داود أفئسى ونظر له ثم قال :

— حسن .. ومتى ترغب أن تسافر ؟

— إذا أردت فالآن حالا .

نهض داود معه . فوضع محسن ذراعه فى ذراعه كجندى يقود مجرما وقبل أن يخرج من الغرفة أدار رأسه لباقي الموظفين ونظر لهم نظرة تم عن شدة فرحه بانتصاره وسروره باتقان الحيلة وذكااته ومهارته.

— — —

جلسا ، أحدهما قبال الآخر فى القطار . لا تفارق نظرة محسن

الدقيقة اللامعة حركات داود . فهو متنبه لأقل حركة تلبو منه .

حاول داود أن ينظر من النافذة فمنعه محسن بقوله .

كن عاقلا معى ولا تنظر من النافذة . !

ثم تذكر أنه ارتكب بقوله هذا غلطة كبرى وأنب نفسه وراح يشرح لداود معنى كلمته من أنه من المجازفة أن ينظر المرء أثناء سير

القطار من النافذة ثم انزوى محسن في ركن المقعد آسفا مغضبا .
نفسه وهو يقول سرا : لن يجد أمامه شخصا غيرى يسوق جنونه
عليه ...)

كان داود أفندى رجلا طيبا . رضى أن يلعب هذا الدور مع
محسن لحبه إياه . ولكنه رغم تألمه الشديد لموقفه هذا كان يكتف ضحككات
كثيرة ومحاذر ألا يلتقى نظره بنظر محسن حتى لا يتلمس به معانى السخط
والاحقار لأنه يلهو به ويلعب به كما يلعب الرجل بالطفل الصغير .
في حين أن محسن كان يعتقد أن داود يهرب بنظراته لأنه خائف
منه وأن هذا الخوف دليل على جنونه .

وصل القطار إلى المحطة فقام محسن نشطا مسرورا لأن مأموريته
انتهت بسلام وأسرع إلى القبض على ذراع داود قائلا له (الزحام
شديد فلنكن تنويا) ثم نزلا . فرأى محسن وجوها كثيبة تنظر إليه
ومدت نحوه عشر أيد قوية وقبض عليه بينما كان داود مطلق السراح ..
في هذه اللحظة فقد محسن منطقه — ان كان له منطق وكادت رأسه
تلهب تحت تأثير فكرة واحدة (هل هؤلاء الناس كلهم مجانين
فيقبضون على أنا ؟)

ولكنه أخذ يصرخ فجأة (المجنون أهو المجنون أهو ، مش أنا !)
فكان هذا أكبر دليل لدى جمهور المتفرجين وموظفى المستشفى
على جنونه . ثم ألقوه في عربة وسارت به وهو مقيد يبكى غيظا وحنقا
ويصرخ (يا مجانين يا مجانين ! !) .

(جريدة السياسة ، ١٤/١/١٩٢٧ ص ٢) .

فهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة
١٣	البوسطجى
٧٧	قصة فى سجن
١٠١	أبو فودة
١٣٧	حياة لص (★)
١٤٩	قهوة ديمترى (★)
١٦٣	من المجنون ؟ (★)

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٣/١١٤٠٥

I.S.B.N 977-01-3632-8

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٣٠٠ قرش